الفهرس

الموضوع

- مقدمة المؤلف
- المعرفة الإجمالية والبرنامج الكلي للسلوك إلى الله
- الشرح التفصيلي للعوالم المتقدمة على عالم الخلوص
- الشرح الإجمالي للطريق وكيفية السلوك إلى الله
- الشرح التفصيلي للطريق وكيفية السير إلى الله

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أفضل السلام على الروح الطاهرة لنبي آخر الزمان محمد المصطفى ووصية المنتجب صاحب الولاية الكبرى علي المرتضى وأبنائه الأئمة الطاهرين بالخصوص قطب دائرة الإمكان بقية الله الحجة بن الحسن العسكري أرواحنا له الفداء.

إن الحس الديني والاندفاع نحو عوالم الغيب وكشف أسرار ما وراء الطبيعة كل هذا يعتبر جزء من غرائز أبناء البشر، ويمكن عد هذه الغريزة ناشئة من جاذبة حضرة الرب الودود الذي يجذب عالم الإمكان وبالأخص الإنسان الأشرف إلى مقامه المطلق اللامتناهي. ومغناطيس الروح هو روح الروح الذي يعبرون عنه بالأرواح وحقيقة الحقائق والأصل القديم ومنبع الجمال ومبدأ الوجود وغاية الكمال.

الكل عبارة وأنت المعنى يا من هو للقلوب مغناطيس

هذه الجذبة الطبيعة الحقيقة التي يكون نتيجتها وأثرها تحطيم قيود الطبيعة والحدود الأنفسية والاتجاه نحو عالم التجرد
والإطلاق وأخيراُ الفناء في الفعل والاسم والصفة والذات المقدسة لمبدأ المبادئ و غاية الغايات، وبقاء الموجود ببقاء المعبود هذه الجذبة هي أعلى وأرقى من كل عمل يمكن تصوره. (جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين).

فالإنسان من أعماق ذاته وفطرته ويتحرك نحو كعبة المقصود وقبلة المعبود ويسافر بقوة الغريزة والفطرة الإلهية ويتجه بكل وجوده نحو هذا الهدف، لذلك يجب أن تشارك جميع أعضائه وجوارحه في هذا السفر.

فعالم الجسم والمادة الذي هو طبعه وعالم الذهن والمثال الذي هو برزخه وعالم العقل والنفس الذي هو حقيقته كل هذه يجب أن تكون حاضرة في هذا السفر وتشارك فيه.

فكا ينبغي أن تكون وجهة البدن نحو الكعبة حين الصلاة في الركوع والسجود والذهن مصوناً من الخواطر ومتجهاً نحو سدرة المنتهى كذلك ينبغي أن تغرق الروح في أنوار حريم الحرم الإلهي. وتمحى وتدهش في داخل حرم الحضرة الأحدية الآمن.

ومن هنا يتبن أن هؤلاء الذين اهتموا بالظاهر واكتفوا من العبادات والأعمال الحسنة بالأفعال القالبية واقتنعوا بالقشر بدلاً من اللب والجوهر كم هم بعيدون عن كعبة المقصود ومهجورون من جماله ولقائه.

وكذلك هؤلاء الذين انصبوا على المعنى وتركوا الأعمال الحسنة والعبادات الشرعية كم هم يعبدون عن متن الواقع وقد اقتنعوا بالمجاز والوهم بدلاً من الواقع والحقيقة.

أليس أن نور الله في سار في تمام مظاهر عوالم الإمكان وجار فيها؟

فلماذا إذن نعفي البدن من العبادة ونعطل هذا العالم الجزئي من تجلي الأنوار الإلهية؟ ونكتفي بألفاظ الوصول واللب والقلب والعبادة القلبية؟ أليست هذه العبادة من جانب واحد؟

أما النمط الأوسط والأمة الوسط، فهم أولئك الذين جمعوا بين الظاهر والباطن وحملوا تمام درجات ومراتب وجودهم على العبادة والانقياد لحضرة المحبوب وتجهزوا لهذا السفر الملكوتي.

فجعلوا الظاهر عنواناً للباطن والباطن روحاً وحقيقة للظاهر ومزجوا الاثنين معاً كما يمتزج الحليب بالسكر. فمرادهم من الظاهر الوصول إلى الباطن وقد عدو الباطن بدون الظاهر هباءً منثوراً.

(اللهم نور ظاهري بطاعتك وباطني بمحبتك وقبلي بمعرفتك
وروحي بمشاهدتك وسري باستقلال اتصال حضرتك يا ذا
الجلال والإكرام)

ومن هنا يتضح أنه لأجل تكميل النفس وطي مدارج ومعارج الكمال الإنساني فإن الاقتصار على العلوم الإلهية الذهنية والفكرية كتعلم الفلسفة وتعليمها لن يكون كافياً بأي وجه من الوجوه. فترتيب القياس والبرهان على أساس المنطق والصحيح والمقدمات السليمة يعطي الذهن نتيجة مقنعة ولكنه لا يشبع الروح والقلب ولا يروي النفس من عطش إلى الحقائق وشهود دقائق السير.

فالفلسفة والحكمة وإن كانت تتمتع بالأصالة والمتانة وتقوم بإثبات أشرف العلوم الذهنية والفكرية- وهو التوحيد- على أساس البرهان وتسد الطرق أمام الشكوك والشبهات وكما أن القرآن الكريم والراسخين في العلم عليهم الصلاة والسلام قد أمروا بالعقل والتفكير وترتيب القياس والبرهان والمقدمات الاستدلالية ولكن الاكتفاء بالتوحيد الفلسفي والبرهاني في مدرسة الاستدلال بدون انقياد ووجدان الضمير وشهود الباطن هو أمر ناقص.

فتجويع القلب والباطن من الأغذية الروحية المعنوية لعالم الغيب والأنوار الملكوتية الجمالية والجلالية، والاقتناع بالسير في الكتب والمكتبات والدرس والتدريس حتى إذا بلغ أعلى درجاته فإنما هو إشباع لعضو من الأعضاء وتجويع لعضو أعلى وأرفع.

فالدين القويم والصراط المستقيم يراعى كلا الجانبين ويكمل القوى والقابليات الكامنة في الإنسان من الجهتين.

فهو من جانب، يحث ويرغب بالتعقل والتفكر. ومن جانب آخر يأمر بالإخلاص وتطهير القلب من صدأ الكدورات الشهوانية وتهدئة القلب واطمينان وسكينة الخاطر. فبعد أحد عشر قسماً عظيماً وجليلاً يقول تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها ** وقد خاب من دساها﴾

هذه الآيات القرآنية التي تخاطب روح الإنسان وتتكلم مع باطنه أنظر كيف تدعو المفكرين والمدرسين وأساتذة مدرسة الفلسفة والاستدلال إلى التعبد والمراقبة ومحاسبة النفس للإخلاص في العمل لأجل رضا الله كما جاء عن رسول الله (ص): (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه).

فينابيع المعارف الإلهية من قلوبهم متفجرة وعلى ألسنتهم سارية وقد انبعث السيل الجارف من الأفكار والإلهامات والواردات الرحمانية من عمق وجودهم.

وهذا فخر فلاسفة الشرق بل فلاسفة العالم صدر المتألهين الشيرازي، فبعد قضاء عمره في الحكمة المتعالية يحصل له الانجذاب نحو العبودية والعبادة وتطهير الباطن والتزكية حتى أنه كتب بقلمه : (وإني لأستغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمري في تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام وتدقيقاتهم وتعلم جربزتهم في القول وتفننهم في البحث حتى تبين لي آخر الأمر بنور الإيمان وتأيد الله المنان أن قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم فألقينا زمام أمرنا إليه وإلى رسوله النذير المنذر فكل ما بلغنا منه آمنا به وصدقناه ولم نحتل له وجهاً عقلياً

ومسلكاً بحثياً بل اقتدينا بهداه وانتهينا بنهيه امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ حتى فتح الله على قلبنا ما فتح فأفلح ببركة متابعته وأنجح). (مقدمة الأسفار الأربعة)

وآية الحق المولى حسينقلي الهمداني أفضل وأعلى فقيه صمداني وحكيم إلهي وعارف رباني في بداية القرن الماضي. هذا الفقيه الكبير والمفكر الجليل والفيلسوف العالي القدر الذي حصل جميع هذه العلوم الحقة في ظل علم العرفان وتهذيب النفوس، وادغمها جمعياً في أنوار الوجه الإلهي وعين مرتبة كل علم في مكانه وموقعه وجعل المقصد الأسمى: الوصول إلى حرم الله الآمن.

هذا العارف قد ربى تلامذة، وسلمهم إلى مدرسة العرفان فكان كل واحد منهم نجماً في سماء الفضيلة والتوحيد، فأضاؤا العالم وسطوا عليه على مد شعاع البصر والبصيرة. ومن جملتهم العارف الرباني السيد أحمد الطهراني الكربلائي وتلميذ فخر الفقهاء وجمال العرفاء الحاج الميرزا علي القاضي أعلى الله مقامهما الشريف.

مع أن أستاذنا فخر المفسرين وسند المحققين العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي مد الله ظلاله الوارفه قي سار في بداية حياتخ بجناحي العلم والعمل وطوى الطريق في مدرسة الفلسفة وفي مدرسة العرفان عند المرحوم القاضي وأفنى عمره في القياس والبرهان والخطابة وتقوية العلوم الفكرية، من الإشارات والأسفار والشفاء وحواشيها مع الاشتغال الكامل بالخلوات الباطنية والأسرار الإلهية والمراقبات العرفانية فقد استقرت راحلته أخيراً على عتبة القرآن المقدس، ففاض وتوغل في الآيات السبحانية إلى درجة أصبح البحث والتفكير وقراءة وتفسير وتحليل وتأويل الآيات القرآنية عنده أعلى من كل ذكر وفكر والتدبر فيها ألذ من كل قياس وبرهان وكأنه لا يملك شيئاً سوى التعبد المحض مقابل صاحب الشريعة الغراء وأوصيائه المكرمين.

وهذا أهي المرحوم آية الله الشهيد مرتضى المطهري رضوان الله عليه الذي تمتد معرفتي به إلى أكثر من ٣٥ سنة قد وجد بعد سنوات من البحث والدرس والتدريس والكتابة والخطابة والموعظة والتحقيق والتدقيق في الأمور الفلسفية وجد بذهنه الوقاد ونفسه الشفافة أن الإنسان لا يمكنه أن يحصل اطمينان الخاطر وتهدئه السر دون اتصال الباطن والارتباط بالله المنان وإرواء القلب من منبع الفيوضات الربانية وبدونه لا يمكنه أبداً أن يدخل حرم الله المطهر أو يطوف حوله ويصل إلى كعبة المقصود.

وكالشمعة المحترقة، والفراشة الهائمة حول النار كمؤمن عاشق ولهان قد فني في البحر اللامتناهي لذات المعبود وصفاته وأسمائه واتسع وجوده بسعة وجود الله، تقدم بقدم الصدق إلى هذا الميدان.

فقيام الليالي الحالكة والمناجات ولآهات في الأسحار والتوغل في الذكر والفكر ودراسة القرآن والابتعاد عن أهل الدنيا والاتصال بأهل الله وأولياء الله كل هذا كان مشهوداً في سيره وسلوكه رحمة الله عليه رحمة واسعة.
﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾،﴿إن الله مع الذين أتقو والذين هم محسنون﴾.

وقد ُطلب من هذا الحقير أن يكتب شيئاً قبل مدة في ذكرى شهادته، وأنا الفقير الذي أرى نفسي غير لائق، اعتذرت أول الأمر لكثرة المشاغل وتراكم الشواغل.

وأخيراً بعد المراجعة المتكررة، أعطتني روح هذا الصديق العزيز الغالي مدداً لأحرر هذا المختصر بعنوان مقدمة لرسالة كتبتها في السير والسلوك وجعلتها لروح المرحوم في متناول أيدي طالبي الحق ومستمسكي سبل السلام وطريق الحقيقة. بيده أزمة الأمور به استعين.

وأصل هذه الرسالة أس ومخ أول دورة من الدروس الأخلاقية والعرفانية التي ألقاها أستاذنا المعظم العلامة الطباطبائي روحي فداه في سنوات ١٣٦٨ و٦٩هـ في حوزة قم المقدسة على بعض الطلبة فحررتها، وكنت اعتبر أنم قراءتها والمرور عليها في أوقات الشدة والكدورة والتعب موجب لتنوير الروح وتلطيف النفس.

فهذه دورة مررت عليها بالتنقيحات والإضافات اهدي ثوابها إلى روح الفقيد السعيد المطهري أعلى الله مقامه الشريف.

(اللهم احشره مع أولئك المقربين واخلف على عقبه
في الغابرين واجعله من رفقاء محمد وآله الطاهرين
وأرحمه وإيانا برحمتك يا أرحم الراحمين)

المعرفة الإجمالية والبرنامج الكلي للسلوك إلى الله

هو العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين وبعد قال الله العلي العظيم:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد** ألا أنهم في مرية من لقاء ربهم ألا أنه بكل شيء محيط﴾

أي سحر كان وأي ليلة مباركة

ليلة القدر تلك حين الهدية منحت

من شعشعة تجلي الذات عن نفسي ذهلت

وفيها من تجلي كأساً شربت

يعيش الإنسان المادي في بيداء المادية الظلمة غارقاً في بحر الشهوات والكثرات اللامتناهي وسط أمواج العلائق المادية التي تتقاذفه من كل جانب فما أن يفيق من لطمات الأمواج وصدماتها حتى تأتي أمواج أعتى وقد نبعت من التعلق بالمال والثروة بالنساء والأولاد فتصفعه على وجهه صفعات متوالية حتى يغوص في قعر الأمواج ويغرق في هذا البحر العميق المهول بحيث لن تسمع بعد ذلك أناته وصرخاته للنجدة.

وإلى أي جهة نظر وجد أن الحرمان والحسرة اللتين هما من الآثار واللوازم التي لا تفارق المادة الفانية تهددانه وترعبانه.

وفي هذا الخصم قد يلاطفه نسيم عليل (باسم الجذبة) ويجد وكأن هذا النسيم يسحبه جانباً ويسوقه إلى مقصد ما وهذا النسيم لا يستمر فهو يهب من حين إلى آخر.

(وإن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها) ، في هذه الحال تشتعل روح السالك إلى الله ويقرر تبعاً لتأثير هذه الجذبة الإلهية أن يعبر عالم الكثرة ويشد بكل ما يمكنه

عنان السفر ليخلص نفسه من هذه الغوغائية المليئة بالآلام والاضطرابات ويسمى هذا السفر باصطلاح العارفين وعرفهم بـــ (السير والسلوك).

فالسلوك هو طي الطريق ، والسير هو مشاهدة آثار وخصائص المنازل والمراحل أثناء الطريق.

وزاد هذا السفر الروحاني هو المجاهدات والرياضة النفسانية ولأن قطع علائق المادة صعب جداً وثقيل فأن فروع العلاقة بعالم الكثرة تستأصل شيئاً فشيئاً حتى يتم السفر من عالم الطبع.

وهو بعد لم يفرغ ولم يسترح من تعب الطريق حتى يدخل عالم البرزخ الذي هو الكثرة الانفسية فيشاهد هنا بوضوح تلك المادة والكثرات الخارجية كم قد أودعت من ذخائر في داخل بيت الطبع وهي تلك الموجودات الخيالية النفسانية التي نشأت من التعامل والعلاقة بالكثرات الخارجية وصارت جزء من آثارها وثمارها ومواليدها.

وهذه الخيالات تصبح مانعاً وعائقاً أمام سفره وسالبة للهدوء والسكينة فالسالك كلما أراد ساعة في ذكر الله هجمت عليه فجأة كالسيل الهادر قاصدة إهلاكه.

هذه النـــــفس قد ملت خو اطر الخوف والنفع والضرر
فلا صفاء لها بقي ولا لطف ولا طريق إلى العلا للـــسفر

وبديهي أن الصدمة والعذاب الناشئين من الكثرات الانفسية تكون أقوى منهما في الكثرات الخارجية فكم من إنسان يستطيع بإرادته أن يبتعد عن مقابلة الكثرات الخارجية بالعزلة ولكنه بهذه الوسيلة لا يمكنه أبداً أن يتخلص من عذاب وصدمة الخيالات الانفسية لأنها قرينته ومجاورة له دائماً.

مسافر طريق الله والخلوص والعبودية الحقة لا يخاف من هذه الأعداء يشمر عن ساعد الهمة وبمساعدة تلك النغمة القدسية يتقدم نحو المقصد ويخرج من عالم الخيالات المسمى (بالبرزخ).

ويجب أن يكون السالك حذراً جداً ومتيقظاً حتى لا يبقى شيء من هذه الخيالات في زوايا بيت القلب لأن دأب هذه الموجودات أن تخبئ نفسها عند إخراجها في زاوية مخفية من زوايا القلب بحيث يظن السالك المسكين أنه قد تخلص من شرها ولم يبق فيه شيء من عالم البرزخ ولكن ما

أن يضع المسافر قدمه في الطريق يريد أن يرتوي من عيون الحكمة حتى تنصب عليه فجأة شاهرة سيف التسلط والجفاء لتحرق عمله.

مثل هذا السالك مثل من يصب الماء في حوضه ويتركه مدة لا يلمسه حتى تترسب كل الأوساخ فيظهر الماء في الحوض صافياً فيظن أن هذا الصفاء وهذه الطهارة الحاصلة دائمة ولكن بمجرد أن ينزل إلى الحوض تعود هذه الأوساخ لتلوث هذا الماء الصافي وتظهر على سطحه مجدداً.
فينبغي للسالك أن يحصل هدوء واستقرار الخيال بالمجاهدة والرياضة حتى تتجمد آثار الخيال في ذهنه وتتحجر لا تستطيع أن تقوم مجدداً لتشوش ذهناً حين التوجه إلى المعبود.

عندما يعبر السالك من عالم الطبع والبرزخ إلى عالم الروح يطوي مراحل سوف نتحدث عنها إن شاء الله تعالى بالتفصيل.
وإجمالاً، فإن السالك بعد أن يوفق لمشاهدة نفسه والصفات والأسماء الإلهية شيئاً فشيئاً يصل إلى مرحلة الفناء الكلي ثم يصل بعدها إلى مقام البقاء بالمعبود وعندها تثبت له الحياة الأبدية.

لا يموت من أحيا قلبه بالعشق أبداً
فحياة الأبد له صحيفة عالم البقا

بالتأمل والتدبر في الآيات القرآنية الكريمة. ويصبح هذا الأصل أمرا مسلماً وحاصلة أن الله تعالى يقول في إحدى آياته: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾

ويقول في مكان آخر : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾.

وأيضاً: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ .

بضم هذه الآيات إلى بعضها البعض يتضح أن أولئك الأحياء والمرزوقين هم عبارة عن وجه الله الذي- بنص الآية الكريمة- لا يعرف الفناء والزوال.

في جانب آخر يعلم من الآسيات القرآنية الأخرى أن المراد من وجه الله تعالى والذي لا يقبل الزوال هو تلك الأسماء الإلهية.

وبيان ذلك أنه قد فسر في آية أخرى ﴿وجه الله﴾ الذي لا يزول ولا يفنى بأسمائه تعالى التي ترتب عليها صفات العزة والجلال ﴿وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، باتفاق جميع المفسرين فإن كلمة (ذو) صفة لـــ(وجه) أي أن وجه ربك الذي هو وجه الجلال و الإكرام باق وكما نعلم فإن وجه كل شيء هو ما يحصل المواجهة به فوجه أي شيء مظهر له، والمظاهر هي تلك الأسماء الإلهية التي تواجه الله مخلوقاته بها والنتيجة أن كل الموجودات قابلة للزوال والفناء إلا الأسماء الجلالية والجمالية وهكذا فإن السالكين إلى الله الذين وصلوا إلى فيض سعادة ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ هم عبارة عن الأسماء الجلالية لحضرة الرب جل وعز.

ويعلم أيضاً بوضوح مراد الأئمة الأطهار عليهم السلام من قولهم: " نحن أسماء الله" وليس المقام الذي يصفون أنفسهم به هو مقام الحكومة الظاهرية الاجتماعية وتصدي الأمور الشرعية والأحكام الإلهية الظاهرية بل المراد ذلك الفناء في الذات الأحدية الذي يتلازم مع وجه الله وصيرورته ومظهراً تاماً للصفات الجمالية والجلالية الذي لا يقارن مع أي منصب ومقام.

وفي طريق للسالك أن لا يخلي نفسه من مراقبتها منذ أن يضع قدمه الأولى في الطريق وحتى آخره فهي من الضروريات المؤكدة وعليه أن يعلم أن للمراقبة درجات ومراتب فنوع في المراحل الأولية وفي المراحل التي تليها نوع آخر.

فكلما سار نحو الكمال وطوى المراحل والمنازل أصبحت مراقبته أدق وأعمق بحيث لو حملت تلك الدرجات من المراقبة على السالك المبتدئ لم يقم بها بل يترك السلوك فوراً ويهجره أو يخترق ويهلك. أذن شيئاً فشيئاً على أثر المراقبة في الدرجات الأولية والتقوي في السلوك يمكنه أن يصل إلى المراتب العالية من المراقبة في المراحل التالية وعندها فإن الكثير من المباحات التي كانت له في المراحل الأولية تصبح حراماُ وممنوعة عليه.

على أثر المراقبة الشديدة والاهتمام بها تستطيع آثار الحب والعشق في ضمير السالك لأن عشق الجمال في البشر أمر فطري على الإطلاق وقد خمر في جبلته وأودع في ذاته. لكن حب الماديات والتعلق بالكثرات يصبح حجاباً للعشق الفطري فلا يدع هذا النور الأزلي يظهر فيه.

وبالمراقبة فإن هذه الحجب تضعف شيئاً فشيئاً إلى أن تزول في النهاية فيظهر ذلك الحب والعشق الفطري ليقود الإنسان إلى مبدأ الجمال والكمال. ويعبر عن هذه المراقبة في اصطلاح العارفين (السكر).

لشيخ الخرابات قلت ما طريق النجاة أجاب أطلب كأس السكر والسر فأخفي
فأرني طريق الخلوة لكي نشرب معاً كأسا وتدع الـــــــــــدنيا هــواناً

عندما يواظب السالك على المراقبة فإن الله تعالى ومن باب العطف والرأفة يظهر عليه أنواراً بعنوان الطلائع في بداية الأمر فشيئاً حتى تصبح مثل ضوء مصباح أو قنديل مشتعل وهذه الأنوار تسمى في اصطلاح العارفين بـــ(النوم العرفاني) وهي من قبيل الموجودات البرزخية.

ولكن حينما يصبح السالك أقوى من مراتب المراقبة هذه ويراعى المراقبة بشكل تام تصبح هذه الأنوار أقوى فيرى السالك كل السماء والأرض شرقاً وغرباً دفعة واحدة مضيئة مشرقة هذا النور هو نور النفس الذي يسطع حين العبور من عالم البرزخ ولكن في المراحل الأولية للعبور عند بدء تجليات النفس يشاهد السالك نفسه بصورة مادية وبعبارة أخرى قد يلاحظ نفسه وكأنها واقفة أمامه وهذه المرحلة هي مرحلة ابتداء التجرد.

وأحياناً يلتفت السالك إلى أنه أضاع نفسه .. ومهما بحث عنها فإنه لا يستطيع العثور عليها .. قيل إن هذه المشاهدات تقع في المراحل الابتدائية لتجرد النفس وهي (المراحل) مقيدة بالزمان والمكان وفيما بعد وببركة التوفيقات الإلهية يستطيع السالك أن يرى حقيقة نفسه بالتجرد التام الكامل.

يقول المرحوم الأستاذ العلامة القاضي رضوان الله عليه أنني كنت في أحد الأيام خارجاً من غرفتي عبر ممر البيت فرأيت نفسي واقفة وصامتة إلى جانبي فنظرت إليها بدقة متناهية لأرى وجود شامة في وجهي وعندما دخلت إلى الغرفة ونظرت في المرآة رأيت فعلاً أنه كان يوجد في وجهي شامة ولم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيتها .

ينقل عن المرحوم الميرزا جواد الملكي التبريزي رضوان الله عليه الذي كان تلميذاً وملازماً لأستاذ العرفان والتوحيد المرحوم المولى حسينقلي (رض) مدة ١٤ سنة أنه قال: ذات يوم قال لي الأستاذ: إن مهمة تربية التلميذ الفلاني على عاتقكم وذلك التلميذ كان يملك همة عالية وعزماً راسخاً فقضى ست سنوات في المراقبة والمجاهدة حتى وصل إلى مقام القابلية المحضة للإدراك وتجرد النفس. أدرت أن ينال هذا السالك طريق السعادة بهذا الفيض على يد الأستاذ ويتخلع بهذه الخلعة الإلهية. فأحضرته إلى بيت الأستاذ وبعد عرض المطلوب قال الأستاذ: ليس هذا بشيء ثم أشار بيده وقال: التجرد مثل هذا فقال ذلك التلميذ: فوراً رأيت أنني فصلت عن جسدي وإلى جانبي أشاهد موجوداً مثلي.

أعلم أن شهود الموجودات البرزخية ليس له ذلك القدر من الشرافة بل الشرافة في رؤية النفس في عين التجرد التام والكامل. لأن النفس في هذه الحال تسطع بتمام حقيقتها المجردة فيشاهد موجود ليس مقيداً بزمان أو مكان بل يحيط بمشرق العالم ومغربه وهذا الشهود بخلاف شهود المراحل الأولية ليس جزئياً وإنما هو من قبيل إدراك المعاني الكلية.

ينقل عن المرحوم السيد أحمد الكربلائي رضوان الله عليه الذي كان من تلامذة المرحوم الهمداني البارزين أنه قال:
كنت يوماً في مكان الاستراحة فأيقظني شخص وقال: إذا أردت أن تشاهد الأنوار الاسفهبدية فقم من كأنك وعندما فتحت عيني رأيت نوراً ليس له حدا أو درجة ويحيط بمشرق العالم ومغربه (اللهم ارزقنا) هذه هي مرحلة تجلي النفس التي تشاهد بتلك الصورة وبشكل نور غير محدود.

بعد عبور هذه المرحلة يوفق السالك السعيد- على أثر الاهتمام في المراقبة المتناسبة مع العوالم العلوية ومقتضيات تلك المنازل والمراحل- لمشاهدة صفات الباري تعالى، أو إدراك أسماء الذات المقدسة بنحو الكلية وكم يحدث في هذه الحال أن ينتبه السالك فجأة إلى جميع موجودات هذا العالم هي وحدة علم، أو أنه لا يوجد غير قدرة واحدة. هذا في مرحلة شهود الصفات، أما في مرحلة الشهود الأسماء والتي هي أعلى منها فيلاحظ السالك أنه يوجد في كل العوالم عالم واحد قادر واحد وحي واحد هذه المرحلة اشرف وأكمل من مرحلة إدراك الصفات التي توجد في مرتبة القلب (لأن السالك يصبح ولا يرى قادراً ولا عالماً ولا حياً سوى الله تعالى) وهذا الشهود غالباً ما يظهر في حالة قراءة القرآن. وكم يحدث أن يرى قارئ القرآن أنه لم يكن هو القارئ بل شخص آخر وقد يحصل أن يدرك أن المستمع أيضاً كان شخصاً آخر.

أعلم أن لقراءة القرآن في حصول هذا الأمر تأثيراً كبيراً جداً. ويحسن أن يقرأ السالك حين الاشتغال بصلاة الليل سور العزائم، لأن السجود لله فجأة من حال القيام لا يخلو من اللطف وقد ثبت التجربة أن قراءة السورة المباركة "ص" في ركعة الوتر من صلاة ليلة الجمعة مؤثرة جداً وخاصية هذه السورة تعلم من حلال الروايات التي وردت بشأن ثوابها.

وحين يطوى السالك هذه المراحل بالتوفيق الإلهي ويشرف لهذه المشاهدات تحيط به الجذبات الإلهية تقربه في كل آن إلى الفناء الحقيقي إلى أن تحيط به أخيراً الجذبة التي تجعله متوجهاً إلى الجمال والكمال المطلق فيشتعل وجوده وغير وجوده بحيث لن يرى شيئاً مقابل الطلعة الغراء للمعشوق (كان لله ولم يكن معه شيء).

في هذه الحال يخرج من وادي الهجران ليستغرق في بحر مشاهدة الذات الربوبية اللامتناهية ولا يخفي أن سير السالك وسلوكه لا يتنافى مع وجوده في عالم المادة فإن بساط الكثرات الخارجية يبقى على حاله ويكون السالك في الوحدة في عين الكثرة قال أحدهم: بقيت بين الناس ثلاثين سنة كانوا يظنونني معهم ومراوداُ لهم والحال أنني خلال تلك المدة لم أكن أعرف وأرى أحداً سوى الله.

هذه الحالة مهمة جداً وتحوز على أهمية عظمية فمن الممكن أن تظهر في البداية للحظة واحدة. ولكن شيئاً فشيئاً تشتد لتصل إلى ١٠ دقائق أو أكثر ثم لساعة أو أكثر لتنتقل بعدها بالعناية الإلهية من الحال إلى المقام.

وتسمى هذه الحالة بلسان العظماء وفي الأخبار بـــ(البقاء بالمعبود) ولا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة من الكمال إلا بعد حصول الفناء الكلي من وجود الموجودات في ذات حضرة الأحدية وعندها لن يرى السالك شيئاً سوى الذات الإلهية الأقدسية. طلب أحد المجذوبين بالجذبة الإلهية ويدعى (بابا فرج الله) أن يصف الدنيا فقال: (من الوقت فتحت عيني لم أر الدنيا حتى أصفها لكم). ويعبر عن هذا الشهود الابتدائي الذي لم يقو حتى ذاك الوقت بـــ(الحال) ويكون السالك فيه غير مختار ولكن على أثر شدة المراقبة بالتوفيقات الإلهية ينتقل إلى (المقام) حيث يصبح هنالك مختاراً.

من البديهي أن السالك القوي هو الذي يكون في عين شهود هذه الأحوال متوجهاً إلى عالم الكثرات ويدبر كلا العالمين. وهذه المرتبة عالية جداً ورفيعة. والوصول إليها في غاية الصعوبة ولعلها تختص فقط بالأنبياء ومن يرد الله فهو في عين الاشتغال بنعمة (أنا بشر مثلكم) تظهر تجليات (لي مع الله حالات لا يسعها ملك القرب).

لو قال أحد أن هذه المناصب اختصاصية والوصول إلى هذه الذروة من المعارف الإلهية منحصر بالأنبياء والأئمة المعصومين (ع) وإن الآخرين ليس بإمكانهم الوصول إلى هذا الطريق أبداً. فنحن نجيبه بأن منصب النبوة والإمامة أمر اختصاصي ولكن الوصول إلى مقام التوحيد المطلق والفناء في الذات الاحدية الذي يعبر عنه بالولاية ليس أمرا اختصاصياً أبداً ودعوة الأنبياء والأئمة (ع) أممهم إلى هذه المرحلة من الكمال ودعوة رسول الله (ص) أمته إلى اقتفاء آثار مشيه حينما مشى كل ذلك يستلزم لإمكانية السير إلى ذلك المقصد، وإلا لزم أن يكون الدعوة لغواً.

﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

روي عن طريق العامة عن رسول (ص) أنه قال: (لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع).

هذا الحديث يحكي بشكل بيَن عن سبب عدم الوصول إلى الكمالات الإنسانية وهذا السبب هو الخيالات الشيطانية الباطلة وأفعال اللغو والعبث وروي أيضاً عن طريق الخاصة: (لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السموات والأرض).

ومن جملة آثار المرتبة الإنسانية العالية الإحاطة الكلية بقدر الاستعدادات الإمكانية بالعوالم الإلهية ونتيجة هذه الإحاطة الاطلاع على الماضي والمستقبل والتصرف في مواد الكائنات فيحصل للمحيط غاية التسلط على المحاط عليه فهو مرافق للجميع وحاضر في كل مكان.

يقول أحد العارفين ويدعى الشيخ عبدالكريم الجيلي في كتابه (الإنسان الكامل) اذكر مرة عندما عرضت لي حالة في لمحة البصر وجدت نفسي خلالها متحداً مع جميع الموجودات بحيث كنت أرى حضورها جميعاً بالعيان مشهوداً عندي ولكن هذه الحال لم تستمر لأكثر من لحظة.

طبيعي أن المانع من دوام واستمرار هذا الحال هو الاشتغال بتدابير البدن وإن حصول تمامية هذه المراتبة و بعد ترك تدبير البدن. يقول أحد عارفي الهند واسمه الشيخ ولي الله دهلوي في كتابه الهمعات: (أطلعت على أن الفراغ من آثار النشأة المادية يحصل بعد مرور ٥٠٠ عام من عبور المادة والموت وهذه المدة مطابقة لنصف يوم من الأيام الربوبية لقوله عز من قائل: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.

ومعلوم إن سائر درجات وفيوضات هذا العالم بلا حد ولا نهاية. ولان أساس وضع الألفاظ كان تبعا للاحتياجات البشرية وعلى أثر توسع الاحتياجات اتسعت دائرة وضع الألفاظ لذا فمن غير الممكن بيان الحقائق والأنوار التجردية للعوالم الربوبية في قالب الألفاظ فكل ما قيل عن هناك كان إشارة وكناية ولا يمكن تنزل هذه الحقائق العالية في الإفهام.

يعيش هذا الإنسان المادي في العالم الذي هو كما جاء أنت في اظلم العوالم من العوالم الإلهية ويضع الألفاظ لكل ما يراه بعينه ويلمسه بيده حسب احتياجاته اليومية ولكن لا إطلاع له على

سائر العوالم والتشعشعات والأنوار والأرواح حتى يضع لها ألفاظ. وليس لدينا أي لغة من لغات العالم تحكي عن هذه المعاني العالية فكيف إذن يمكن نأتي بهذه الحقائق بواسطة الوصف واللغة.

وعن هذه الحقائق تتحدث جماعتان، هما:

√ الأنبياء الكرام (ع) حيث ولا شك كانت لهم رابطة مع عوالم ما وراء المادة ولكن بحكم (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكمل الناس على قدر عقولهم) اضطروا أن يعبرون عن هذه الحقائق تعبيراً بحيث يكون قابلاً لإدراك عامة الناس ولهذا غضوا النظر عن بيان الحقائق النورانية والغاية الساطعة ورفعوا اليد عن تبيان ما لا يخطر على قلب بشر وكانوا يعبرون عن "حقيقة" ما لا عين رأت و لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بتعابير مثل الجنة والحور والقصور وغيرها ولهذا اعترفوا في النهاية بأن بيان الحقائق تلك العوالم ليس مقدوراً.

√ الجماعة الثانية وهم جماعة من الناس كان نصيبهم- من خلال متابعة طريق الأنبياء- التشرف لإدراك هذه الحقائق والفيوضات بقدر اختلاف استعداداتهم وقد كان كلامهم تحت ستار الاستعارة والتمثيل.

عالم الخلوص والإخلاص

أعلم بأن الوصول إلى هذه المقامات والدرجات لا يمكن أن يتحقق دون الإخلاص في سبيل الله وما دام السالك لم يصل إلى منزل المخلصين فلن يتم له كشف الحقيقة كما ينبغي.

وأعلم أن الإخلاص والخلوص على قسمين: الأول: خلوص الدين والطاعة لله تعالى.

الثاني: خلوص النفس له تعالى والدلالة على الأول الآية الكريمة ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وعلى الثاني الآية الشريفة: ﴿... إلا عباد الله المخلصين﴾

والحديث النبوي المشهور: من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه يدل على القسم الثاني أيضاً أي أن الذي يصل إلى هذه المرحلة هو ذاك الذي أخلص نفسه لله تعالى وتوضيح هذا الإجمال أن تعالي كما أسند الصلاح في القرآن الكريم وفي بعض المواضع إلى العمل كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً﴾ أو ﴿من عملاً صالحاً﴾ أو ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أسند ذلك أيضاً إلى ذات الإنسان كقوله تعالى:﴿أنه من الصالحين﴾ أو ﴿صالح

المؤمنين﴾ كما اعتبر أن الإخلاص والخلوص يستند إلى العمل أحياناً وقد نسبه إليه وأحياناً يستند إلى الذات.

وبديهي أن تحقق الإخلاص في مرتبة الذات متوقف على الإخلاص في مرتبة العمل أي أن الذي لم يخلص في أعماله وأفعاله وأقواله وفي سكناته لن يصل إلى مرحلة الإخلاص الذاتي قال عز من قائل ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ بإرجاع الضمير المستتر الفاعل "يرفع" إلى (العمل الصالح) يصبح المعنى (العمل الصالح يرفع الكلم الطيب) وأعلم أن الذي يصل إلى مرحلة الخلوص الذاتي وينال هذا الفيض العظيم فسوف يكون له آثار وخصائص ليست من نصيب وحظ الآخرين.

الأول: بنص الآية القرآن الكريم ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وبديهي أن هذا ليس استثناء تشريعياً بل بواسطة الاقتدار الذاتي للمخلصين في مقام التوحيد حيث لا يعود الشيطان قدرة على إغوائهم وبسبب ضعفه وعجزه لا يستطيع أن يصل إليهم في هذه المرحلة وهؤلاء (المخلصين) لأنهم أخلصوا أنفسهم لله فان كل ما يرونه يرون الله فيه وإذا ظهر عليهم الشيطان بأي شكل أو هيئة فإنهم ينظرون إلى هذه الهيئة بالنظر الإلهي والاستفادة الإلهية لهذا فإن الشيطان قد اعترف منذ البداية بالعجز والمسكنة أمام هذه الطائفة وإلا فإن الشيطان بذاته إنما هو لإغواء بني آدم، لا ممن يريد الترحم عليهم ويمتنع عن إضلالهم.

الثاني: هذه الطائفة معفوه من حساب يوم الحشر الآفاقي والوقوف في عرصاته وقد جاء في القرآن الكريم:
﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض إلا من يشاء الله﴾
يستفاد من هذه الآية الكريمة بشكل قطعي وجود جماعة تأمن صعقة يوم القيامة وفزعه، وإذا ضممنا الآية الشريفة:

﴿فإنهم لمحضرون** إلا عباد الله المخلصين﴾ إليها نعلم أن الطائفة التي هي في أمان من صعقة يوم القيامة هي ﴿عبد الله المخلصين﴾ لأنه ليس لهؤلاء أعمال توجب حضورهم في عرصة يوم القيامة فهم قد قتلوا في ساحات جهاد النفس وباسطة المراقبة والرياضات الشرعية تعلقوا بالحياة الأبدية السرمدية. وعبروا قيامة النفس العظمي وحصل لهم حساب في مرحلة المجاهدة وبواسطة القتل في سبيل الله تخلعوا عند ربهم بخلعة الحياة الأبدية وتنعموا من أوراق الخزائن الربوبية الخاصة قال عز من قائل: ﴿ولا يحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم

يرزقون﴾ إضافة إلى الإحضار ينشأ من عدم الحضور وهم قبل ظهور طليعة القيامة كانوا حاضرين في كل مكان ومطلعين على كل الأحوال لقوله تعالى: ﴿... عند ربهم يرزقون﴾.

الثالث: إن كل ما يعطى للإنسان من ثواب وأجر يوم القيامة سوف يكون مقابل ما عمله إلا أن هذه الطائفة من الناس تكون الكرامة الإلهية لهم ما وراء طور أجر العمل:

﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عبد الله المخلصين﴾ ولو قيل أن مفاد هذه الآية هو أن طائفة المعذبين يجزون طبق أعمالهم إلا عباد الله حيث لا يكون الجزاء مقابل أعمالهم بل أن الله المنان سوف يعطيهم بفضله وكرمه فالجواب أن الآية هنا في مقام الإطلاق ولا تخص المخاطبين بفئة المعذبين إضافة إلى أن مجازاة العباد بالفضل والكرم لا يتنافي مع الجزاء مقابل العمل لأن معنى الفضل هو أن الله المنان يعطي الأجر الكبير مقابل العمل الصغير وفي الواقع يحسب العمل الصغير كبيراً ولكن مع هذا كله فإن الجزاء واقع مقابل العمل في حين أن الآية الكريمة غير هذا ومفادها: أن عباد الله المخلصين بالأصل لا ينالون الجزاء مقابل العمل وفي آية أخرى: ﴿لم يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾

فكل ما تتعلق به مشيئتهم لهم وزيادة عليه أذن يتضح أنهم يعطون من الكرامات الإلهية فوق الإدارة والمشيئة وأعلى من مستوى التصور وأسمى من فضاء تحليق طائر رغباتهم ولهذه النكتة دقائق جديرة بالانتباه.

الرابع: لهؤلاء المقام المنيع والمنصب الرفيع والمرتبة العظيمة التي يستطيعون فيها أداء الحمد والشكر للذات الاحدية والثناء كما هو لائق للذات الاقدسية. قال عز من قائل :﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾

وهذه غاية كمال المخلوق ومنتهى الدرجة الممكنة.

من مجموع البيانات السابقة نرى قدر ومميزات المراحل الأخيرة للسلوك التي هي مقام المخلصين وكم هي الفيوضات التي تترتب عليها. ولكن ينبغي أن يكون واضحاً أن الوصول إلى هذه الكمالات والتحقق بهذه الحقائق إنما يصبح ميسوراً لمن يقتل في ميدان الجهاد في سبيل الله ولا يسكر من الفيوضات الإلهية إلا من شرب من كأس الشهادة والمراد من القتل قطع علاقة الروح بالبدن ومتعلقاته وكما يقطع الشهيد في معركة القتال علاقة روحه ببدنه بواسطة السيف الظاهري.

فإن سالك طريق الله أيضاً وبواسطة الاستمداد من القوي الرحمانية يقطع علاقة روحه عن البدن ومتعلقاته بالسيف الباطني في ميدان المعركة مع النفس الأمارة.

في بداية السلوك على السالك إلى الله أن يقطع أغصان التعلق بعالم الكثرات بوسيلة اختيار مقام الزهد والتأمل والدقة والتفكر في ضعة الدنيا وعدم فائدة التعلق بها فنتيجة الزهادة انعدام الرغبة والميل إلى الأشياء وعدم الفرح من الحوادث التي تجلب النفع المادي له وعدم الحزن من الوقائع التي تؤدي إلى ضرره المادي.

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

وهذا لا يتنافى مع الحزن والفرح في الله لأن هذا الفرج ليس من حب المال والمصالح والاعتبارات بل وجهة أنه يرى نفسه غارقاً في بحر إحسان الله كرمه.

بعد طي هذه المرحلة يلتفت السالك إلى أن له علاقة مفرطة بنفسه وأن هذا الحب يصل إلى درجة العشق وإن كل ما يؤديه، وكل مجاهدة يجاهدها ناشئة من فرط حب ذاته لأن أحدى خصائص الإنسان حبه لنفسه بالفطرة وتضحيته بكل شيء من أجلها بل لا يبخل في إبادة أي شيء من أجل بقائها وإزالة هذه الغريزة صعبة جداً ومواجهة هذا الحس الذي هو روح التكبر ومجاهدته من أعقد المشاكل وما دامت هذه الغريزة فلن يتجلى نور الله في القلب وبعبارة أخرى إذا لم يتجاوز السالك نفسه فلن يتعلق بالله.

على السالك أن يستمد بالألطاف الإلهية والإمدادات الرحمانية المطلقة لإضعاف غصن الذات حتى يقطعه في النهاية كافراً بهذا الصنم الباطن الذي هو رأس كل المفاسد وينساه كلياً بحيث تكون أعماله عند التأمل والتحقيق كلها للذات الإلهية الأقدسية ويتبدل حب ذاته إلى حب ربه ولا يتم هذا إلا بالمجاهدة... وبعد طي هذه المرحلة لن يكون للسالك أي تعلق بالبدن وآثاره وحتى روحه التي قطعها.

كل ما يعمله لله وإذا سد جوعه وهيأ لوازم الحياة والعيش بقدر الكفاف والضرورة فذلك لأن المحبوب الأزلي يريد حياته وإلا فإنه لا يقدم رجلاً من اجل تحقق حياة هذه النشأة. وبالطبع فإن هذه الإرادة في مقابل إرادة الله طولية وليست عرضية وعلى هذا الأساس لا يحق للسالك أن يطلب الكشف والكرامات ويعمل من أجل تحقيقها ويؤدي الأذكار والرياضات من أجل طي الأرض والأخبار عن المغيبات والإطلاع على الضمائر والأسرار والتصرف في مواد الكائنات

فيعمل أي شيء لأجل استكمال وبروز القوى النفسانية لأن مثل هذا الشخص لا يسير في رضا المحبوب وعبادته ولن يكون مخلصاً فهو قد جعل نفسه المعبود وسار لقضاء حاجاته وتحقيق استعدادته وإن كان لا يعترف بهذا المنكر فيؤدي كل عباداته على الظاهر في سبيل الله مثل هذا الإنسان مثل ﴿.. أفريت من اتخذ أله هواه..﴾.

فعلى السالك أن يعبر هذه المرحلة ويدع نفسه المتمسكة بالأنانية وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله.

وعندما تصل حالة السالك إلى هذه المرحلة شيئاً فشيئاً ينسى نفسه التي كان يحبها لله ولا يرى بعدها ذاتاً ولن يرى بعد ذلك غير الجمال الأزلي والأبدي إلى أن يغرق في ذلك البحر اللامتناهي وعندها لن يبقى منه أي أثر.

على السالك أن ينتبه في تلك الحرب النفسية إلى حيل جنود الشيطان حتى يتغلب عليهم ويقطع الآثار النفسية لذاته كاملاً، ويقتلع جذورها من الزوايا الخفية لبيت القلب فمع بقاء ذرة واحدة من حب المال والجاه والمنصب والكبر وحب النفس والرئاسة فيه لن يصل أبداً إلى الكمال ولهذا شوهد الكثيرون من الذين قضوا سنوات طويلة في الرياضات والمجاهدات ولم يصلوا إلى الكمال بل لاقوا الهزيمة في مجاهدة النفس وعلة ذلك أن جذور بعض الصفات كانت باقية في بيت القلب وهم يظنون أنها قد أزيلت بالكامل وفي موقع الامتحان الإلهي وفي مظان بروز النفس وتجلي آثارها.. تنمو جذورها فجأة لتحرق عمل السالك.

إن النجاح في غلبة النفس وجنودها منوط بالمدد والعناية الخاصة لحضرة رب الأرباب لأن طي هذه المرحلة لن يكون دون توفيقه وعنايته الخالصتين.

يقال أن تلامذة المرحوم السيد بحر العلوم رأوه مبتسماً فسألوه عن السبب أجاب: (اليوم وبعد ٢٥ سنة من المجاهد نظرت في نفسي في رأيت أن أعمالي لم يعد فيها رياء. واستطعت أن أوفق لرفعها). فتأمل جداً.

على السالك أن يكون ملازماً لشرع الأنوار منذ بداية السير والسلوك وحتى آخر مراحله ولا يتجاوز بقدر رأس الإبرة فلو رأيت شخصاً يدعي السلوك ولا يلازم التقوى والورع ولا يتابع جميع الأحكام الشرعية والإلهية الحقة فاعرف أنه منافق إلا إذا اعتبرت ذلك من باب العذر أو الخطأ أو النسيان وما سمع من البعض من أنهم يقولون السالك يسقط عنه التكليف بعد الوصول إلى المقامات العالية والفيوضات الربانية فهو حديث كذب وافتراء عظيم لأن الرسول الأكرم

(ص) مع أنه أشرف الخلائق والموجودات فقد كان ملازماً ومتابعاً للإحكام الإلهية حتى آخر أيام حياته فسقوط التكليف بهذا المعنى كذب وبهتان.. نعم يمكن أن نفهم منه معنى آخر وهو أن القائلين لا يقصدون هذا فأداء الأعمال العبادية باعث لاستكمال النفوس البشرية ويوصل الإنسان بواسطة الالتزام بالسنن العبادية من مراحل القوة إلى الفعلية من جميع الجهات هي لأجل الاستكمال، ولكن لهؤلاء الذين وصلوا إلى مرحلة الفعلية التامة: فلي للعبادة معنى من جهة حصول الكمال وتحصيل مقام القرب بل إتيان العبادات من أمثال هؤلاء لعنوان آخر وهو نفس مقتضى حصول الكمال. لهذا عندما سألت عائشة رسول الله (ص) عن سبب تحمله هذه الالآم والأتعاب في العبادة رغم إن الله تعالى قال له :
﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. فقال (ص): (ألا أكون عبداً شكوراً).

وقد أصبح معلوماً إن إتيان الأعمال العبادية من بعض النفوس لم يكن استكمالاً للنفس بل محضر إظهار الامتنان والشكر الجزيل.

الحالات التي تظهر للسالك على أثر المراقبة والمجاهدة والأنوار والآثار التي تصبح مشهودة له من حين إلى آخر كل هذه المقدمة تحصيل الملكة لأن مجرد ترتيب الآثار وتغير الحال في الإجمال ليس كافياً بل يجب على السالك أن يسعى لرفع بقايا العالم السافل الذي هو كامن ومخفي في ذاته وإذا لم يؤسس مع صالحي العالم العالي السنخية فإن الوصول إلى مراتبهم لن يكون ميسوراً له، بل على أثر أدنى هفوة في السلوك والجهاد سوف يهوي ويسقط مجدداً إلى العالم السافل والكريمة الشريفة: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾

تشير إلى هذا الحقيقة إذن ينبغي للسالك أن يظهر ظاهره وباطنه كاملاً وكل زوايا وخفايا قلبه حتى ينال توفيق صحبة الأرواح الطيبة ومجالسة صالحي الملأ الأعلى.

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ ومن هنا يجب طي العوالم المتقدمة على عالم الخلوص كاملة وإجمال هذه العوالم قد بينها الله سبحانه وتعالى في الآية المباركة: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداُ إن الله عنده أجر عظيم ﴾.

وهكذا فالعوالم المقدمة على عالم الخلوص أربعة:

الأول: الإسلام ، الثاني: الإيمان ، الثالث: الهجرة ، الرابع الجهاد في سبيل الله ولأن جهاد هذا المسافر هو الجهاد الأكبر

لقوله (ص) : (رجعنا من الجهاد الصغر إلى الجهاد الأكبر) فالشرك في هذا السفر أن يكون إسلام وإيمان المجاهد هو الإسلام والإيمان الأكبرين بعدها يشمر الطالب عن ساعد الهمة مع الرسول الباطن بعون الرسول الظاهر أو خليفته للهجرة وينزل إلى ميدان المجاهدة حتى ينال فوز القتل في سبيل الله.

وعلى السالك أن يكون واقفاً عند هذه النقطة وهي إن الموانع الإنسية والشيطانية من بداية السلوك حتى هذه المرحلة من الجهاد كانت كثيرة ولكن لأنه نال شرف القتل وعبر عوالم الإسلام الأكبر والإيمان وقتل في المجاهدة تبدأ عوالم الإسلام الأعظم والإيمان الأعظم والهجرة العظمى والجهاد الأعظم، وموانعها الكفر الأعظم والنفاق الأعظم وفي هذا الوادي لن يكون لجنود الشيطان أي قدرة للنيل والغلبة بل إن الشيطان نفسه الذي هو رئيس الأبالسة سوف يقطع الطريق على السالك.

فلا يتصورن السالك أبداً إن طوى هذه العوالم نجي من المخاطر ووصل إلى جوهر المقصود بل عليه أن يلتفت إلى أنه إذا لم يطو هذه العوالم العظمى السابقة فسوف يقع في حبائل إبليس ويمنعه الشيطان من الوصول إلى المنزل المقصود فعليه أن يشمر عن ساعد الهمة العالية والجد ولا يدع الشيطان اللعين يوقعه في الكفر الأعظم والنفاق الأعظم فيقوم بعد الإسلام الأعظم والإيمان الأعظم مهاجراً الهجرة العظمى، ويعبر بالمجاهدة العظمى قيامة النفس ليدخل إلى وادي المخلصين.

الشرح التفصيلي للعوالم المتقدمة على عالم الخلوص

بناء على ما تقدم على المسافر إلى الله أن يطوي الـــ١٢ عالماً قبل الدخول إلى عالم الخلوص وهذه العوالم هي:الإسلام:الأصغر والأكبر والأعظم، الإيمان: الأصغر والأكبر والأعظم والهجرة الصغرى والكبرى والعظمى والجهاد الأصغر والأكبر والأعظم لهذا فعليه أن يعرف خصائص هذه العوالم وآثارها وعلائمها وموانعها وصوارفها وهنا قد بيناها بنحو الإجمال وتفصليها موجود في الكتاب المتسطاب المنسوب للمرحوم فخر الفقهاء والأولياء السيد مهدي بحر العلوم رضوان الله عليه. ومن أراد الشرح المفصل عليه أن يرجع إلى ذلك الكتاب لكننا هنا ولتوضيح المطلب نبينها ببعض الإجمال.

الإسلام الأكبر عبارة عن التسليم والانقياد المحض أي ترك الاعتراض على الله عزوجل من جميع الوجوه والاعتراف والإذعان بأن كل ما هو موجود ومتحقق من الصلاح وكل ما لم يحدث ليس من الصلاح وبشكل عام رفع اليد عن (لماذا) وعدم الشكوى من حضرة رب العزة وإلى هذه المرتبة إشارة في كلام أمير المؤمنين (ع) في الحديث المرفوع للبرقي (إن الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين).

وإضافة إلى ترك الاعتراض ينبغي أن لا يكون في قلبه أي نوع من المآخذ على الأحكام التشريعية أو أي غش بالنسبة للتكوينية منها. كما ورد في قوله تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾. هذه المرحلة هي مرحلة الإيمان الأكبر التي يسري فيها الإسلام الأكبر إلى الروح ويتصرف بالقلب والنفس.

عندما يتنور قلب السالك بنور الإسلام الأكبر تعرض عليه من حين لآخر حالة يشاهد فيها- علاوة على الإدراك الشعوري- إن كل موجود يستند إلى الباري عز وجل وبعبارة أخرى يجد الله حاضراً وناظراً في كل الأحوال وهذا هي مرحلة الشهود والإسلام الأكبر ولأنها لم تصل لحد الآن إلى الكمال بحيث تسري إلى جميع أركان البدن وتتصرف بالأعضاء والجوارح تصرفه الموانع المادية والمشاغل الطبيعية عن هذه الحالة وتسلبه ذلك الشهود ليعود إلى الغفلة فيجب على السالك أن يقف بعزم راسخ ليرتفع بهذه الحال إلى مقام الملكة ويوصلها إلى الكمال حتى لا

تستطيع الشواغل الخارجية بعدها أن تغير مسيره الشهودي وتتغلب على حالة فينبغي أن يسري هذا الإسلام من مقام القلب إلى الروح حتى يتبدل ذلك الإجمال إلى تفصيل وبأمر الروح تحيط تلك الحالة بكل القوى الظاهرية والباطنية ثم لتصل من الحال إلى الملكة. وهذا المقام هو الذي يعبر عنه العارفون بـــ(مقام الإحسان) كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم:﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ ولا يقف بل يقول: ﴿... وإن الله لمع المحسنين﴾

فإذا لم يصل المجاهد في سبيل الله إلى مرتبة الإحسان فلن يستطيع الحصول والوصول إلى سبيل الهدية الإلهية وقد سئل رسول الله (ص) عن معنى الإحسان فأجاب: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن فإنه يراك).

إلى ذلك الحين الذي لا يكون إسلام الأكبر قد وصل إلى الإيمان الأكبر تعرض عليه من حين لآخر حالة الإحسان فيؤدي العبادات بشوق ورغبة وميل شديد. أما عندما يصل إلى الإيمان الأكبر فإنه ينتقل من حال الإحسان إلى مكلة المحسنين وحينها يؤدي السالك جزئيات الأفعال وكلياتها من منبع الميل والشوق بطيب خاطر ففيه يكون الإيمان قد سرى إلى الروح ولأن الروح سلطان جميع الأعضاء والجوارح وحاكمها، لذا فإنها تحمل الجميع على العمل فيسهل العمل عليها جمعياً، لأنها أصبحت مطيعة من الروح ومنقاد لها ولا تتلفظ في أي آن بأية معصية. قال الله تعالى في حق هذه الطائفة:﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلواتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون﴾ لأن الاشتغال بالملاهي ناشئ من الميل والرغبة بها والسالك المؤمن بالإيمان الذي وصل إلى مرتبة الإحسان وملكته لن يكون له أي رغبة بها لأنه يعرف أنه لا يمكن اجتماع محبتين وشوقين في قلب واحد. لقوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ ولو كان في قلب السالك ميل ورغبة إلى الملاهي نستنتج بالبرهان الإني أن الميل والرغبة الالهيتن ليستا فيه، ومثل هذا القلب يكون منافقاً لأنه من جانب يظهر الميل والرغبة في الأمور الراجعة إلى الله تعالى ومن جانب آخر يميل ويرغب في أمور اللغو واللهو. وهذا هو النفاق الأكبر الذي يكون في مقابل الإيمان الأكبر ولا يكون التسليم والإطاعة فيه ناشئين من الرغبة والاشتياق الباطني وإنما من العقل ووليد الخوف والمصالح التي توجد في الإنسان وإلى هذا النفاق أشار تعالى لقوله: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ .

حينما يصل السالك إلى الإيمان الأكبر، لا يكون فيه أي درجة من درجات هذا النفاق ولا تكون أفعاله ناشئة بأي وجه من المدركات العقلية والمصالح والمنافع الذاتية أو الخوف بل على أساس الشوق والمحبة وبداعي العشق والميل والرغبة.

لأن السالك قد وصل إلى مرتبة الإيمان الأكبر، فعليه أن يستعد للهجرة الكبرى وهي الهجرة بالبدن عن مخالطة أهل العصيان ومجالسة أهل البغي والطغيان وأبناء الدهر الخوان، والهجرة بالقلب عن المودة لهم، والهجرة بالبدن والقلب معاً عن العادات والرسوم المتعارفة والاعتباريات التي تمنع السالك من سلوك طريق الله وتكون عائقاً ومانعاً من سفره لأن العادات والرسوم من مهمات بلاد الكفر.

في مجتمع الإنسان المادي يكون الإنسان مقيداً برسوم وعادات وهمية وخيالية. اعتاد عليها أهل الدنيا فأصبح قياس النفع وميزان الخسارة والمحاورات والمعاشرات والزيارات مبنية عليها. كما جرت العادة أن ينسب إلى جهل كل من يلتزم الصمت في مجالس المذاكرة والمباحثات العلمية أو أن التلهف على الجلوس في صدر المجلس دليل على الكبر، وأن التقدم على الجلوس في صدر المجلس دليل على الكبر وأن التقدم في الدخول والخروج من المجلس دليل على العظمة والتملق والمسامرة في الكلام دليل على اللياقة وحسن الخلق وخلافه دليل على الحقارة والضعة وضعف الشخصية و...

يجب على السالك بالتوفيق الإلهي والإمداد الرحماني أن يغص النظر عن كل هذه الأمور ويهاجر من عالم الخيال والوهم ويطلق هذه العجوز ثلاثاً فلا يخاف ولا يفزع من أي قوة ولا يهوله مذمة الناس أو معاتبة من يعدونهم من أهل العلم والفضل، وقد جاء في جامع الكليني في رواية السكوني عن الصادق (ع) عن رسول الله (ص): (أركان الكفر أربعة الرغبة والرهبة والسخط والغضب). فسرت الرهبة هنا بالرهبة من الناس من مخالفة عاداتهم ونواميسهم الوهمية وحاصل الكلام أن على السالك أن يرفع يده عن جميع الآداب والعادات والرسوم الاجتماعية الاعتبارية التي تسد طريق الله، ويعبر العارفون عن هذا بـــ(الجنون) لأن المجنون ليس له معرفة برسوم وعادات الناس ولا يعطيها أي قيمة وينظر إلى مدحهم وذمهم نظر اللامبالاة ولا يجد الخوف طريقاً إليه عند ترك الناس أو ثورتهم عليه.

أيها الناس سارت القافلة والصحراء مقبلة
فأين الدليل والطريق إليها مقفرة
فهذي مدينة العشق وجذار الغفلة
فعندها تفيق وأنت خارج القلعة
ادر كأساً وناولها وعن الأفلاك غض البصر
فحتام تبقى وحيداً تشرب غصص الدهر

عندما يوفق السالك بتوفيق الحضرة الربانية للهجرة وينتشل قدمه من مستنقع العادات والرسوم ليضعها في ميدان الجهاد الأكبر حيث محاربة جنود الشيطان، لأن السالك في هذا الموقع يكون في عالم الطبيعة أسير الوهم والغضب والشهوة ومغلوباً من قبل الأهواء المتضادة ومحاطاً بلجة الآمال والأماني حيث تستولي عليه الهموم والغموم وتؤلمه منافيات الطبع والخواطر ويترقب المخاوف العديدة وكل زاوية من زوايا صدره تشتعل وفي داخله أنواع الفقر والاحتياج وأصناف والآلام والانتقام خائفاً من تلف ماله من جزاء مشاكل الأهل والعيال وخطوب الزمان متمنياً الجاه وهو لا يصل إليه باحثاً عن المنصب والمركز فلا يجده محاطاً بأشواك الحسد والغضب والكبر والأمل يشعر بالجبن والحقارة أمام حيات وعقارب وسباع عالم الطبيعة والمادة.

وقد أدلهم قلبه من ظلمات الوهم وكدورته، فينال صفعات الدهر من كل جانب وكلما وطأت قدمه شيئاً حملت معها الأشواك .. فكل هذه الآلام والأسقام قد أودعت في قلب السالك...

بعد التأمل والتدبر في كثرتها، على السالك أن يتغلب على جنود الوهم والغضب والشهوة بالتوفيق الإلهي ليفوز في هذه المجاهد الكبرى ويكون الفتح والظفر نصيبه في هذا الجهاد. متخلصاً من العوائق والعلائق مودعاً عالم الطبيعة إلى الأبد حينها يدخل عالم الإسلام الأعظم حيث يرى نفسه جوهراً واحداً وجوهرة بلا مثيل محيطاً بعالم الطبيعة ومصوناُ من الموت والفناء فارغاً من خطوب الأضداد ويشاهد في نفسه صفاء وضياء وبهاء فوق إدراك عالم الطبيعة ووجد حياة جديدة ورغم أنه في الظاهر في عالم الملك والناسوت فهو يرى الموجودات الناسوتية بصور مكلوتية وكل ما يقابله من المادة يشاهد بصورة ملكوتية.

ولا يصل الضرر إليه لأنه قد وصل إلى قيامه النفس الوسطى وأزاح الستار جانباً فظهر له كثير من الأمر الخفية وحدث له كثير من الأحوال العجيبة هذه المرتبة هي مرتبة الإيمان الأعظم التي ذكرت في القرآن الكريم بشكل واضح: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعلمون﴾.

كذلك قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أثنى وهو مؤمن فلنحييه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾

مما لا ينبغي أن يبقى خافياً على السالك في هذه الحال هو أنه من الممكن أن يأخذه العجب والأنانية من جزاء ما يشاهد وإن أعظم الأعداء وأشدهم : نفسه كما ورد في الحديث (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك).

ففي هذا الحال إن لم تنفذه العناية الربانية فسوف يتبلى بالكفر الأعظم وأشاروا إلى هذا الكفر بقولهم: النفس هي الصنم الأكبر وكانت هذه هي عبادة الأصنام التي التجأ النبي إبراهيم (ع) واستعاذ بالله منها: ﴿واجنبني وبني الأصنام﴾ ففي حق إبراهيم (ع) لا يتصور تلك العبادة للأصنام المصنوعة وإنما هذا هو الشرك الذي استعاذ منه الرسول الأكرم (ص): (اللهم إني أعوذ بك من الشرك الخفي).

إذن على السالك أن يصدق بمساعدة المدد الإلهي بأنه لا شيء ويذعن بعجزه ومذلته وعبوديته ومملوكيته، ويودع الأنانية حتى لا يقع في حضن الكفر الأعظم ليوفق بالتالي للوصول إلى الإسلام الأعظم. كان بعض العارفين لا يتلفظ بكلمة (أنا) طوال حياته أو حتى (نحن) بل كان دائماً يقول: جاء العبد وذهب العبد والبعض الآخر منهم كان يفصل بين ما هو مستند إلى الحسن والجمال فينسبه إلى ذات الحق، وما هو راجع إليه الساحة الإلهية الأقدسية بريئة منه فينسبه إلى نفس وما يمكن إسناده إلى نفسه وإلى الله تعالى يأتي به بصيغة الجمع كـــ(نحن) وهذه الطريقة مستفاد من قصة موسى والخضر (ع) فالخضر يقول: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها﴾.

فأتى هنا بصيغة المفرد المتكلم لأن العيب لا يسند إلى الذات الإلهية. ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكواة وأقرب رحماً﴾

لأن القتل يمكن أن ينسب إلى الله وإلى الخضر فأتى به بصيغة الجمع. ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً ** فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾.**

لأن التوجه إلى الخير وإرادة الكمال والنفع تستند إلى الذات الإلهية فلهذا نسبه إلى الله تعالى وهكذا في حديث إبراهيم (ع) حيث تبرز هذه الطريقة في الخطاب: ﴿الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾
فهو هنا قد نسب المرض لنفسه والشفاء لله تعالى.

ولا يتم الوصول إلى مقام الإسلام الأعظم ورفض الأنانية النفس التي هي محل بروز الشيطان وظهوره إلا بالتوفيق الإلهي.

يقول الحاج إمام قلي النخجواني الذي كان أستاذ المرحوم حسين القاضي والد الميرزا علي القاضي رضوان الله عليهم والذي درس الأخلاقيات والمعارف الإلهية وطوى المراتب الكمالية عند السيد قريش القزويني:

حينما صرت كهلاً رأيت الشيطان وكنا واقفين على جبل فوضعت يدي على وجهي وقلت له: ها قد أصبحت كهلاً وبلغني الكبر فهلا تتركني وتذرني جيداً فأشار إلي بأن أنظر إلى جانبي وعندما نظرت رأيت وادياً عميقاً جداً يبهت العقل من شدة الرعب ويأخذ بمجامع الإنسان ثم قال لي: أنا، ليس في قلبي أي رحمة ومروة وعطف وأنت لو علقت في حبالي فسوف يكون مكانك في هذا الوادي الذي تراه الآن.

المرحلة الأعلى من الإسلام الأعظم هي مرحلة الإيمان الأعظم وهي عبارة عن شدة ظهور ووضوح الإسلام الأعظم بحيث يتجاوز العلم والتصديق إلى مرتبة المشاهدة والعيان وفيه يرتحل السالك من عالم الملكوت فتقوم عليه القيامة الأنفسية الكبرى ويدخل إلى عالم الجبروت منتقلاً من المشاهدات الملكوتية إلى المعاينات الجبروتية.

بعد هذا، على السالك أن يهاجر من وجود الذات ويرفضها مطلقاً وهذا هو السفر إلى عالم الوجود المطلق وإلى هذه المرحلة إشارة في حديث بعض العظام (ادع نفسك) وأيضاً إشارة إلى هذه المرحلة قوله تعالى ﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ و﴿ادخلي جنتي﴾ قد أتيت بعد ...﴿فادخلي في عبادي﴾ وخطاب ﴿يا أيتها النفس المطمئن﴾ هو خطاب للنفس التي فرغت من الجهاد الأكبر ودخلت إلى عالم الفتح والظفر الذي هو مقر الاطمئنان ولأنها لم تفرغ بعد من المجاهدة العظمى وما زالت آثارها الوجودية باقية فإن غاية الاضمحلال متوقفة على تحقق الجهاد الأعظم ولهذا فهي لم تخرج حتى الآن من تحت التسلط والقهر وهي في مضمار (المليك) و(المقتدر) وهما اسمان عظيمان لله (في معقد صدق عند مليك مقتدر) يجب على السالك بعد هذه المرحلة أن يتغلب في المجادلة على آثار وجوده الضعيف ويزيل بقاياها المتخفية فيه كاملاً ومن الجذور حتى يقدر أن يتقدم في بساط التوحيد المطلق وهذا العالم هو عالم الفتح والظفر وبهذا تكون العوالم الإثنا عشر قد طويت وهذا الشخص الذي عبر الهجرة العظمى والجهاد الأعظم وصار فاتحاً ومظفراً سوف يدخل عالم الخلوص وقد دخل في مضمار ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ فتقوم قيامته الأنفسية العظمى وقد عبر من الأجسام والأرواح وجميع التعينات وفني منها جمعياً واضعاً قدمه في عالم اللاهوت ليخرج من تحت ﴿كل نفس

ذائقة الموت﴾ فمثل هذا الإنسان قد مات بالموت الإرادي ولهذا قال رسول الله (ص): (من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي فلينظر إلى علي بن أبي طالب).

التوضيح والبيان: إن الكمالات التي ذكرت إلى جانب الآن وبينت آثارها وعلائمها بالتقريب هي فيوضات من جانب رب العزة تختص بأمة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله (ص) فسالكي الأمم السالفة والشرائع السابقة كانت كما كمالاتهم محدودة حيث كان بمقدورهم أن يشاهدوا أسماء وصفات الرب فقط وذلك بعد حصول الفناء والذوبان وما كان يحظر في أذهانهم ما هو أعلى من هذا وسر ذلك أن منتهى معارفهم كلمة (لا إله إلا الله) وحاصلها شهود الذات الجامعة لجميع الصفات الكمالية والجمالية ولكن سالكي أمة الرسول (ص) هم في مرحلة أعلى من هذه بكثير وقد ساروا إلى مراحل بعد لا يمكن بيانها وشرحها وسبب ذلك أن جميع التعاليم الإسلامية تعود إلى كلمة (الله أكبر) من أن يوصف وبناء على هذا فإن المراحل التي يطويها السالك المسلم سوف تنتهي إلى شيء أو حد لا يقبل البيان والوصف وهذا بمناسبة ارتباط السلوك بالكلمة المباركة الله أكبر من أن يوصف لهذا فإن نفس الأنبياء السالفين لم يكونوا يتصورون شيئاً فوق مقام شهود الأسماء والصفات الإلهية ليحلقوا بطائر هممهم إلى ذلك العش ولذلك كانوا يتوسلون بالولاية المعنوية والروحية للرسول الأكرم وأمير المؤمنين والصديقة الطاهرة والأئمة الأطهار عندما كانت تحيط بهم البلاءات الدنيوية فيجدون الخلاص. هذا هو مقام الولاية المعنوية الكبرى الذي كان يدفع الهموم والغموم عن الأنبياء.

وإجمال هذا المقام وإن كان معلوماً عندهم وعلى أساسه كانوا يتوسلون بمقامات الأطهار العالية ولكن كيفيته وخصائصه بقيت مجهولة لديهم إلى أواخر حياتهم (عليهم السلام) نعم فقط يستفاد من القرآن الكريم حصول حالتين للنبي إبراهيم (ع) لكن لا على نحو الدوام استطاع فيهما أن يشهد الحقائق العالية والفيوضات الكاملة على أمل أن يكون له هذا المقام في المنزل الآخر.

قبل الاستعانة بالقرآن الكريم للاستدلال على هذه القضية نذكر أن لمقام الإخلاص مراتب تشكيكية- وبنص القرآن- فإن عدة من الأنبياء قد وصلوا إليه ومع هذا كله فهناك مقام أعلى وأعظم لم يصلوه وكانوا دائماً في مقام الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى من أجل الوصول إليه في الآخرة كما نجد حكاية القرآن الكريم عن النبي يوسف (ع) الذي كان من المخلصين: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾.
مع هذا فقد كان يطلب من الله تعالى أن يلحقه بالصالحين. ﴿أنت ولي في الدنيا ولآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

بناء على هذا، فالنبي يوسف (ع) لم يكن قد وصل إلى مقام الصلاح ولهذا كان يطلب اللحوق بهم بعد الموت وأما أكان دعاؤه استجيب أم لا؟ وهل سيصل إلى مقام الصلاح يوم القيامة أم لا؟ فلا يستفاد من الآيات القرآنية غير ما ذكر ومع أن النبي إبراهيم (ع) كان له المقام الشامخ في الخلوص إلا أن كان يقول: ﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾.

إذن، فإن مقام الصلاح الذي كان النبي إبراهيم (ع) يدعو الله تعالى أن يلحقه بالواصلين إليه هو أعلى من مقام الخلوص والله لم يجب دعاؤه في الدنيا بل وعده أن يكون في الآخرة. ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾
فليعلم أن هذه المرتبة من الصلاح التي تمناها الأنبياء غير الصلاح الذي أعطي لإبراهيم وأولاده.

﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين﴾
لأن هذا الصلاح كان للجميع ومن جملتهم النبي إبراهيم (ع) الذي كان يرجو الوصول إليه وهذا أعلى من ذاك بكثير.

وإما الدليل على أن رسول الله (ص) وعدة في زمانه قد وصلوا إلى درجة الصلاح فالآية الكريمة الناطقة عن قول حضرة الرسول (ص): ﴿إن ولي الله نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾

فالرسول (ص) أولاً قد أثبت لنفسه في هذه الآية الولاية المطلقة لحضرة الأحدية ثم قال أن ولي هو الذي يتولى الصالحين. إذن يعلم أن في ذلك الزمان كان يعيش أفراد من الملخصين الذين هم في مقام الصلاح وإن الله متولي أمورهم. بناء على ما ذكر فإن سر دعاء الأنبياء السالفين وتوسلهم بخمسة آل الطهارة أو الأئمة الأطهار قد اتضح وكم هي درجة علوهم ورتبة ومنزلة الصلاح التي حازوا عليها بحيث يطلب خليل الله (ع) من ربه أن يلحقه بهم.

وأما الدليل على أن الأنبياء العظام قد وصلوا إلى مقام الإخلاص فيمكن الاستفادة لذلك من الآيات الشريفة بعدة أوجه:
﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾

والله تعالى يأمر نبيه بالحمد حيث يقول: ﴿وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون﴾

ويحكي عن حمد إبراهيم (ع) ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ﴾

أو إنه يأمر النبي نوحاً (على نبينا وآله وعليه السلام) أن يؤدي الحمد حيث يقول:

﴿فقل الحمد الله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾

الثاني: التصريحات القرآنية حول مقام إخلاص بعض الأنبياء العظام كما ورد في شأن يوسف (ع) ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾.

وفي شأن حضرة موسى بن عمران: ﴿وأذكر في الكتاب موسى أنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾

وفي شأن حضرة إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾.

الثالث: (من طريقة شكرهم) لله تعالى فمن جانب طبق الآية الكريمة: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾.

ومن جانب آخر ﴿ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾

ومن هنا يتضح أن الشيطان لا يصل إلى الشاكرين الذين هم العباد المخلصين إذن إن وجدنا في القرآن الكريم عباداً يصفهم الله تعالى بصفة الشكر والشاكرين، نفهم أنهم من عباد الله المخلصين ومن جملتهم حضرة نوح النبي (ع):
﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾

وهكذا بالنسبة لحضرة لوط (ع) ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾.

وبالنسبة للنبي إبراهيم (ع) ﴿إن إبراهيم كان امة قانتاً ولم يريك من المشركين شاكراً لأنعمه﴾

وبشكل عام فإن كل الأنبياء الذين عرفوا بصفة الشكر كانوا من المخلصين.

الرابع: (عنوان الاجتباء) حيث يصف الله تعالى بعض الأنبياء بعنوان الاجتباء:
﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾

ويمكن الاستدلال من هذه الآية الكريمة على مقام إخلاص جميع الأنبياء بخلاف طرق الاستدلال السابقة التي استنتجنا منها إخلاص أفراد معدودين ممن ورد ذكرهم. واستدلالنا هنا يتوقف على أمرين . الأول: عنوان الاجتباء. لأن هذه المادة بمعنى اختيار شيء من بين أشياء متشابهة فإذا اختار شخص بعض التفاحات من صندوق التفاح، فإن هذه العلمية تسمى اجتباء وعندما يقول تعالى في الآية الكريمة ﴿واجتبيناهم﴾ أي اخترناهم من بين جميع المخلوقات والبشر وجعلناهم في مكان أو مقام خاص بناء لهذا يتفاوت حكمهم مع الآخرين فهؤلاء أفراد قد اختيروا بتمام المعنى لله وتحت إشرافه. ومعلوم أن هذا الاجتباء لله ينطبق على عنوان الإخلاص لأن المخلصين هم أولئك الذين كانوا لله. وقطعت نسبتهم كلياً عن جميع الموجودات وتعقلوا بالحضرة الأقدسية.

الثاني: إن هذا الاجتباء في الآية لا يختص بأفراد معينين، وإن كان تعالى قد قال بعد ذكر نوح وإبراهيم و١٦ آخرين من الأنبياء وذكر آباءهم وذريتهم وإخوانهم: إن هؤلاء اجتبيناهم لكن معلوم أن المراد من إخوانهم، إخوانهم الروحيون والأخلاقيون الذين يساوونهم بل العموم ويمكن الاستدلال بها على مقام إخلاص جميع الأنبياء.

الشرح الإجمالي للطريق وكيفية السلوك إلى الله

البيان الأول: أول ما يلزم للسالك أن يقوم به هو الفحص والبحث في الأديان والمذاهب وبذل ما يمكنه من الوسع حتى يصل إلى مقام توحيد الله المتعال ويدرك حقيقة هدايته وإن كان ذلك بصرف الظن ومجرد الترجيح فبعد التصديق العالمي أو الظني يخرج من الكفر ليدخل إلى الإسلام والإيمان الأصغرين. والإجماع قائم في هذه المرحلة إن الاستدلال واجب على كل مكلف.

وإذا لم يحصل للمكلف بعد السعي والبحث أي ترجيح فعليه أن يشمر عن ساعد الهمة. ويصر من خلال سيل الدموع والتضرع والأنين والابتهال حتى يفتح له الباب كما أثر عن حضرة النبي إدريس (على نبينا وآله وعليه السلام) ومريديه.

والمراد من الابتهال والتضرع هو أن يوقف الإنسان نفسه موقف العجز ويطلب الهداية من صميم قلبه. ومن البديهي أن الله سبحانه لا يترك عبده المسكين الطالب للحق والعاشق للحقيقة دون أن يهديه طريق الخلاص. ﴿والذين جاهدوا فينا سبلنا لنهدينهم سلبنا﴾ وأذكر حينما كنت في النجف الأشرف أنهل من التربية الأخلاقية والعرفانية على يد المرحوم الميرزا علي القاضي رضوان الله عليه. كنت جالساً حين السحر على سجادة الصلاة. فاستولى على النعاس وشاهدت رجلين جالسين مقابلي، كان أحدهما النبي إدريس (ع) والآخر أخي العزيز السيد محمد حسن الطباطبائي الذي كان تبريز حينها وفي ذلك المواقف كان النبي إدريس (ع) منشغلاً بالتحدث معي ورغم أنه كان المتكلم إلا أنني كنت أسمع كلامه بواسطة صوت أخي السيد الطباطبائي وقال لي: في حياتي وقع العديد من الأحداث المهولة وبالحسابات العادية كان حلها محالاً بل ممتنعاً ولكنها فجأة كانت تحل أمامي ويتضح أن ذلك بواسطة يد فوق الأسباب والمسببات العادية من عالم الغيب وكان هذا أول انتقال ربط لي عالم الطبيعة بعالم ما وراء الطبيعة وخيط ارتباطنا يبدأ من هنا.

في ذلك الوقت خطر ببالي أن المراد من ابتلاءات النبي إدريس (ع) هو تلك الصدمات والمشكلات في أيام الطفولة. والمقصود أنه إذا توسل الإنسان بصدق في مسألة الهداية واستعان بربه فحتماً سوف يعينه ويساعده. وهنا يكون الاستمداد من الآيات القرآنية التي توافق حالة مؤثراً جداً ومفيداً. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. وهذه

الأوراد مثل يا فتاح يا دليل المتحرين وأمثالها لها تأثير عظيم ولا يحصل هذا إلا بأدائها بالقلب الولهان والحضور والتوجه الكافيين.

نقل لي أحد أصدقائي بأنه شرف ذات مرة لزيارة العتبات المقدسة في كربلاء. وقال: انطلقت بنا السيارة من إيران وإلى جانبي كان يجلس شاب حليق الذقن تبدو عليه السمنة ولهذا لم يجر بينا أي حديث، وأثناء الطريق وإذ بصوته يرتفع فجأة بالبكاء والنحيب مما آثار تعجبي كثيراً فسألته عن سبب بكائه فقال لي: إنني إذا لم أخبرك فلمن أقول. أنا مهندس مدني وقد ربيت منذ الطفولة تربية لا دينية فلم أكن أعتقد بالمبدأ والمعاد وإنما فقط كنت أعشر إن في قلبي ميلاً ومحبة للمتدينين، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً ذات يوم كنت في إحدى السهرات الليلية التي كان يحضرها أكثر رفقائي البهائيين، حيث رقصنا ولعبنا ساعات وساعات وفجأة شعرت في أعماقي نفسي بالخجل وتضايقت من أفعالي واضطررت أن أخرج من الغرفة وصعدت إلى الطبقة العليا وهناك أجهشت بالبكاء ورحت أردد في نفسي وأقول: يا ذا الذي هو إله أهدني ثم نزلت إلى الحفل الذي كان قد تفرق وفي اليوم التالي كنت عازماً على السفر في مأمورية فنية بصحبة رئيس القطار وبعض الشخصيات وفجأة رأيت سيداً نورانياً يقترب مني فسلم علي، وقال: لدي عمل معك فوعدته بأن أراه غداً بعد الظهر وبعد ذهابه قال لي أحد أصدقائي إن هذا الرجل من الكبار فلماذا سلمت عليه بلا مبالاة؟ فقلت: إنني ظننت أنه أتى وسلم علي لحاجة له عندي! وصادف أن أمرني رئيس القطار بعدها بالسفر في اليوم التالي وبالتحديد في الموعد الذي أبرمته مع السيد وكلفني بعدة وظائف فقلت في نفسي: بعد هذا لن أستطيع أن ألتقي بالسيد غداً.

في اليوم التالي عندما اقترب موعد العمل أحسست بالضعف وشيئاً فشيئاً اعترتني حمى شديدة ألزمتني الفراش وأحضروا لي الطبيب، مما أدى إلى إعفائي من المهمة التي كلفت بها في ذلك اليوم وما إن خرج الرجل الذي أرسله رئيس القطار إلي وإذا بالحمى تزول عني وعادت حالتي إلى طبيعتها وأحسست بالراحة مجدداً حينها أدركت أنه لا بد من وجود سر في ذلك. فنهضت ثم ذهبت إلى منزل ذلك السيد وبمجرد أن جلست عنده بدأ يلقي علي دورة من الأصول الاعتقادية بالأدلة والبراهين، بحيث كنت أقتنع فوراً ثم كلفني بعدة أمور وأمرني بالمجيء إليه في اليوم التالي ترددت عليه عدة أيام وكنت كلما جلست إليه أسمع منه أخباري والحوادث التي وقعت في أيامي الماضية ولم يكن مطلعاً عليها أحد غيري وبدون زيادة أو نقيصة، حتى نياتي التي عزمت عليها ولم أخبر بها أحد ومرت الأيام إلى أن اضطرت ذات ليلة أن أشترك في سهرة للأصدقاء جرتني إلى طاولة القمار. في اليوم التالي عندما دخلت عليه قال لي على الفور: ألم تستح وتخجل من ارتكاب هذه المعصية الكبيرة فبدأت الدموع تنهمر من عيني وقلت له: لقد

أخطأت وأنا أتوب الآن فقال: ينبغي أن تغتسل غسل التوبة فحدد لي عدة تكاليف وأطلعني على بعض الأمور وباختصار غيرت على أثر ذلك الفرع الذي كنت أعمل فيه، وتبدل بذلك نمط حياتي.

عندما حدثت هذه القضية كنت في زنجان وبعدها عندما أردت الانتقال إلى طهران أمرني بزيارة بعض العلماء هناك وفي النهاية أمرت أن أزور العتبات المقدسة وهذا السفر كان بأمر السيد.

قال صديقي: عندما اقتربنا من الحدود العراقية: سمعت صوته قد علا بالبكاء ثانية فسألته عن السبب فقال: ونحن ندخل أرض العراف الآن رأيت أبا عبد الله يقول لي: (خير مقدم).

فإذا سار الإنسان في طريق الصدق والصفاء وطلب الهداية من ربه من صميم قلبه. فسوف يوفق لها. وإن كان لديه شك في التوحيد.

عندما يوفق السالك في هذه المرحلة، عليه أن يشمر عن ساعد الهمة لتحصيل الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر وأول الأمور اللازمة في هذه المرحلة تعلم الأحكام الشرعية التي تصدر من فقيه عادل. وبعد تحصيل العلم عليه أن ينهض لمقام العمل ويداوم عليه حتى تزداد معرفته ويرتفع يقينه درجة درجة لأن العلم يورث العمل والعمل يورث العلم. فلازم الاعتقاد الشديد بالشيء العمل به وتطبيقه. وبالبرهان الإني نكتشف أن عدم العمل بالشيء يكون نتيجة لعدم جزمية العلم به والاعتقاد والإذعان به فهو مجرد تصور صورة منتقشة في قوى خياله.

فالذي يعتقد (بالعلم الواقعي الحقيقي) برازقية حضرة الأحدية المطلقة لا يتهالك المال بل يقتصر على الكفاف الذي أمر به الشرع ويسعى بتمام هدوء الخيال وسكون الخاطر وبقدر طاقته لتحصيل ذلك المعاش له ولعياله والذي يجعل نفسه عرضة للهموم والغموم من أجل تحصيل المعاش ويسعى فوق الحد الطبيعي له يعلم أن لا اعتقاد عنده بالرازقية المطلقة وإنما يعتقد بالرازقية المقيدة كأن يعتبر الله رازقاً وفي نفس الوقت آخر الشهر. بناء على هذا فإن الاضطراب الخارجي أو الداخلي يكون حاكياً عن عدم العلم بالرازقية أو بكونها مقيدة.

وهذا هو معنى وراثة العلم للعمل. وأما مثال وراثة العمل للعلم فهو إذا قال الإنسان بصدق: (سبحان ربي الأعلى وبحمده).

يشاهد مذلته وبديهي أن الذل لا يتحقق بدون العز فالذليل دائماً في مقابل العزيز المقتدر إذن لا يجد مناصاً من التوجه إلى مقام العزة المطلقة ثم يفهم أنه لا بد مع هذه العزة من علم وقدرة أيضاُ وهكذا فمن هذا العمل البسيط الذي هو ذكر السجدة يطلع على العزة المطلقة والعلم المطلق والقدرة المطلقة لله تعالى وهذا هو معنى أداء العمل للعلم.

وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ فينهض بنشاط بالغ للأعمال الواجبة ويجد في ترك المحرومات لأن سلوك طريق الله يتنافى مع ترك الواجب وارتكاب المحرم وبمراعاة هذين الأمرين تسير جهود السالك وأتعابه في طريق الصلاح فلا فائدة من الزينة مع تلوث البدن كما أن الأعمال المستحبة والرياضات الشرعية لن تكون مثمرة مع تلوث القلب والروح. فليجد في ترك المكروهات وأداء الأعمال المستحبة لأن حصول مرتبة الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر تتوقف على الأعمال لأن لكل عمل خاصة تختص به تؤدي إلى تكميل الإيمان وإلى هذا المعنى أشير في حديث محمد بن مسلم: (الإيمان لا يكون إلا بالعمل والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلا بالعمل).

لهذا على السالك أن يؤدي كل عمل مستحب ولو كان مرة واحدة حتى يجد حظه الإيماني من ذلك العمل. كما جاء في أحاديث أمير المؤمنين (ع) أن الإيمان الكامل ينشأ من العمل. إذن على السالك إلى الله أن لا يتواني أثناء السير إلى منزل الإيمان الكبر عن القيام بالأعمال المستحبة وبديهي أنه بالمقدار الذي يتسامح ويتساهل فيه من أداء الأعمال المستحبة ينقص إيمانه بذلك المقدار. لهذا فإذا قام السالك بتطهير يده ولسانه وسائر أعضاء جوارحه وأدبها بتمام معنى الكلمة بالأدب الإلهي ولكنه لم يجاهد بالمال. فلن يكمل خطه الإيماني بل يسير إلى النقص ويكون مانعاً له من الارتقاء إلى المقام الأعلى بناء على هذا ينبغي أن يوصل إلى كل عضو من أعضائه خطه الإيماني حتى تحصل له حالة الإيمان كأن يشغل القلب الذي هو أمير البدن بالذكر والفكر فالذكر عبارة عن تذكير القلب بأسماء وصفات حضرة الباري تعالى شأنه والفكر عبارة عن توجيه القلب إلى الآيات الآفاقية والأنفسية والتأمل والتدقيق في صنعها وسيرها حتى يرتوي قلب الإنسان من منبع الإيمان بواسطة هذين العلمين. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

بعد أن ينال كل عضو من الأعضاء حظه الإيماني يجب أن يبدأ بالمجاهدة وبها يكمل نقصان الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر ويبعد عن حالة الشك والظن ليصل إلى اليقين. ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم المن وهم مهتدون﴾.

وتكون نتيجة المجاهدة إضافة إلى ورود الصراط المستقيم المن والحفظ من متناول أيدي الشياطين.
﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هو يحزنون﴾.

الخوف عبارة عن الحذر وترقب ما لم يقع بعد وانتظار وقوعه يكون مورد إزعاج الإنسان وقلقه والحزن عبارة عن الهم والغم من أمر غير ملائم ومقبول قد وقع. هذان الأمران ليس لهما طريق إلى السالك لأنه قد جعل عمله كله لله وليس له مقصود سوى الله. فهو ليس في حزن من أمر قد فات ولا في خوف من شيء مترقب فهناك اليقين الذي وصف الله تعالى واجديه بالأولياء ويشير إلى ذلك ما قاله أمير المؤمنين (ع) (أبصر طريقه وسلك وعرف مناره وقطع غماره فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس).

ويقول أيضاً: (هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان اوراحها معلقة بالملأ الأعلى).

ففي هذه المرحلة بالذات، تفتح له أبواب الكشف والشهود ومن البديهي أن طي هذه المنازل لا يتنافى مع كون السالك في الدنيا منشغلاً بأموره الضرورية ولا علاقة لوارداته القلبية بالأوضاع الخارجية من النكاح والتكسب والتجارة والزراعة وأمثالها. وفي الوقت الذي يكون السالك بين الناس منشغلاً بأمور الدنيا تكون روحه سائرة تشارك المكلوتين أسرارهم مثل هذا الإنسان مثل من تنزل عليه المصيبة بفقدان عزيز. فهو في حال المصيبة بين الناس يتكلم معهم ويجالسهم ويأكل وينام، أما في أعماقه فهناك البحر الهائج وأمواج الخواطر المتلاطمة التي تذكره بالمحبوب. كل من ينظر إلى وجهه يرى آثار المصيبة. وسالك طريق الله له حين الاشتغال بالأمور الدنيوية ألوان من الارتباطات والاتصالات مع ربه ويموج بحر الشوق في قلبه وقد اشتعلت نيران العشق فيه وصبت في قلبه سيول الغم والحزن من الهجران ولا يعلم عن هذا البركان المتفجر في أعماقه أحد سوى الله ولكن من ينظر إلى وجهه يعلم إجمالاً أن عشق الله وعبادة الحق والتوجه إلى الحضرة المقدسة قد فعلت به هذا.

من هذا البيان يعلم أن التضرع والمناجاة والابتهال الذي كان للأئمة الأطهار- كما ورد في أدعيتهم المأثورة- لم يكن تصنعاً أو لأجل إرشاد وتعليم العباد. وهذا التوهم ناشئ من الجهل وعدم إدراك الحقائق لأن شأنهم أجل ومقامهم أشرف من أن يظهروا بيانات بدون حقيقة أو معنى أو يدعوا الناس إلى الله بالأدعية والمناجات الكاذبة. أصحيح أن نقول أن كل هذا الأنين

والتضرع والهيام لمولي المتقين وأمير المؤمنين وحضرة السجاد (ع) لم يكن من الواقع في شيء وناشئ من التصنيع أو التعليم؟ حاشا وكلا، هذه الطائفة من أئمة الدين سلام الله عليهم لأنها عبرت مراتب السلوك ودخلت حرم الله ووصلت إلى مقام البقاء بعد الفناء.

الذي هو مقام البقاء بالمعبود حالها يجمع بين عالمي الوحدة والكثرة وتراعي نور الأحدية على الدوام في مظاهر عوالم الإمكان والكثرات الملكية والملكوتية ولهذه الدرجة السامية من الكمالات فإنهم دائماً يراعون لوازم عالم الملك والملكوت بل إنهم لن يتسامحوا في أصغر أو أدنى حكم من الأحكام أو أدب من الآداب أو حال من الأحوال المتناسبة مع هذه العوالم في الوقت الذي يحفظون التوجه إلى العوالم العالية، ولهذا سمو بالموجودات النورية.

الآن، بعد أن وفق السالك وطوى هذه العوالم وتغلب على الشيطان سوف يدخل عالم الفتح والظفر ويصل إلى مرحلة طي العوالم اللاحقة فالسالك حينها يكون قد طوى عالم المادة ودخل في سلك عالم الأرواح وسوف يصل إلى سفره الأعظم أي السفر من عالم النفس والروح والانتقال من دولة الملكوت إلى مملكة الجبروت واللاهوت.

الشرح التفصيلي للطريق وكيفية السير إلى الله

الأول: ترك العادات والرسوم والمجاملات والابتعاد عن الأمور الاعتبارية التي تمنع السالك من طي الطريق. والمقصود أن يعيش السالك بين الناس على طريقة الاعتدال. فطائفة من الناس قد غرقت في المراسم الاجتماعية ولا هم لها سوى جلب الأصدقاء والخلان ولا تبخل بأي شكل من أشكال المجاملة والزيارات المضرة لأجل حفظ الشخصية والمنزلة وتتكلف في العادات وفي الحفاظ على ماء الوجه الظاهري الاعتباري تاركة صميم الحياة لحفظ هامشها. جاعلة الميزان والمعيار في التقبيح والتحسين آراء عوام الناس حتى صارت سفينة وجودهم لعبة تتقاذفها الأمواج المتلاطمة للرسوم والعادات الاجتماعية فأينما سارت أمواج آداب العوام وأخلاقياتهم سارت معها فاقدة للإرادة مقابل المجتمع منساقة انسياق العبيد.

وفي المقابل هناك طائفة أخرى اعتزلت الجماعة وابتعدت عن كل نوع من العادات والآداب الاجتماعية وتنصلت من الاجتماعيات فلا معاشرة ولا مراود مع الناس وبقى أصحابها كذلك حتى عرفوا بالمنزوين.

ولكي يتمكن السالك من الوصول إلى المقصد عليه أن يختار خط الاعتدال بين مسلك هاتين الفئتين ويتجنب الإفراط والتفريط ويسير على صراط مستقيم وهذا الأمر لا يحصل إلا برعاية العشرة ومراودة الناس بمقدار وحد الضرورة الاجتماعية. نعم لو حصل امتياز قهري بين السالك وغيره على أثر اختلاف كمية المعاشرة أو كيفيتها فإن هذا الأمر لن يكون مضراً وبالطبع فإن مثل هذا الاختلاف لن يحصل فالمعاشرة لازمة وضرورية ولكن لا إلى الحد الذي يجعل السالك نفسه تابعاً لأخلاقيات الناس ﴿ولا يخافون في الله لومة لائم﴾ هذه الآية تحكي عن مدى ثباتهم على هذا المنهج المستقيم وتصلبهم في مرامهم ومسلكهم وبشكل عام يمكن أن نقول أن علي السالك أن يقيس ويحدد النفع والضرر في كل أمر اجتماعي ولا يجعل نفسه تابعاً لآراء عوام الناس وأهوائهم.

الثاني: العزم

ما أن يضع السالك القدم الأولى في ميدان المجاهدة حتى تنصب عليه الحوادث الشديدة والبلاءات من جانب الناس والمعارف، أولئك الذين لا يتبعون سوى هوى النفس والرغبات الاجتماعية يعاتبونه ويوبخونه بالقول والعمل لكي يبتعد عن وجهته ومقصده وهذا الاختلاف في نمط الحياة والسلوك فيما بينه وبين الناس يؤدي إلى تخوفهم فيسعون بكل وسيلة ممكنة أن يحرفوا السالك المبتدئ بسياط الملامة والتوبيخ عن جادة الطريق وهكذا فإن السالك سوف يواجه في كل منزل من منازل السفر مشكلة جديدة لا يمكن دفعها إلا بالعزم والصبر لذا عليه أن يطلب من الله المدد والقوة حتى يصمد أمام كل هذه المشاكل ويزيلها بسلاح الصبر والتوكل، وبالالتفات إلى عظمة المقصد فلا خوف من هذه العواصف الهوجاء التي هي عوائق طريق الله وموانعه. ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون**وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

الثالث: الرفق والمدارة

وهي من أهم الأمور التي ينبغي أن يراعيها السالك إلى الله حيث أن أدنى غفلة في هذا الأمر تكون- إضافة إلى منعه من السير والترقي- سلباً كلياً في انقطاع السفر. فالسالك يجد في نفسه في بداية السفر شوقاً شديداً وغلياناً واضطراباً فوق الحد وحماساً شديداً بل وأيضاً أثناء السفر وحين ظهور التجليات الصورية الجمالية حيث يزداد لهيب العشق والاضطراب فيه فيعزم على أداء الأعمال العبادية الكثيرة. تراه معظم أيامه في الدعاء والندبة ويقتفي كل عمل ويتعلم من كل شخص كلمة ويتناول من غذاء روحي لقمة.

هذا الأسلوب من العمل ليس مفيداً ويؤدي إلى الخسران لأنه على أثر تحميل النفس أعمالاً ثقيلة تحصل النتائج العكسية وبالتالي تتراجع إلى الوراء ويعود السالك بعد ذلك خالي اليدين. ويفقد الرغبة والميل للقيام بأدنى عمل مستحب وسر هذا الإفراط في العمل والتفريط النهائي هو أن السالك قد جعل الذوق والشوق المؤقتين ميزاناً ووقوداً لأداء الأعمال المستحبة وحمل النفس أحمالاً ثقيلة، ولما انتهى هذا الشوق المؤقت وخمد لهيبه المتأجج، ضجرت النفس من هذه الأحمال الثقيلة وألقت زاد السفر في البداية أو أثناء الطريق. ولم تعد مستعدة للسفر من جديد، فإذن على السالك أن لا يسقط في فخ هذا الشوق المؤقت، بل عليه أن يقيس بدقة مدى استعداده وحالته الروحية ووضعية عمله وأشغاله ومقدار قابليته للتحمل وينتخب العمل الذي يمكنه أن يداوم عليه على أن يكون أقل من مقدار ومدى استعداده مكتفياً به عاملاً به حتى ينال حظه الإيماني من هذا العمل. وبناء على هذا السالك يشتغل بالعبادة طالما وجد في نفسه الميل والرغبة ويقلع عنها حتى تبقى هذه الرغبة وهذا الميل وبالتالي يرى نفسه دائم الظمأ للعبادة.

مثل السالك الذي يريد أن يؤدي العبادات مثل الذي يريد تناول الغذاء عليه أولاً أن ينتخب الغذاء الذي يلائم مزاجه ثم يدعه عندما يشبع منه لتبقى فيه الرغبة والميل دائمين. وإلى هذا الأمر إشارة في حديث الإمام الصادق (ع) إلى عبدالعزيز القراطيبي:

(يا عبد العزيز إن للإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة إلى أن قال (ع) وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره).

وهكذا فالعبادة المؤثرة في السير والسلوك هي فقط تلك التي تنشأ من الرغبة والميل وإلى هذا المعنى أشار (ع): (ولا تكرهوا أنفسكم على العبادة).

الرابع: الوفاء

وهو عبارة عن عدم العود إلى ما تاب منه وعدم التقصير في أداء ما عاهد نفسه على القيام به ولا يترك ما عاهد عليه شيخه ومربيه العارف في طريق الحق حتى آخر الأمر.

الخامس: الثبات والمداومة

وتوضيح هذا المعنى يحتاج إلى ذكر مقدمة: فالمستفاد من الأخبار والآيات أن الذي ندركه من الذوات الخارجية والذي نؤديه في الخارج من الأفعال ويكون له صورة تحقق في عالم المادة له حقيقة في ما وراء هذه التجسمات الخارجية المادية الجسمانية وما وراء هذه الظواهر والمحسوسات حقائق عالية المرتبة ومجردة من لباس المادة والزمان والمكان وسائر عوارضها وعندما تتنزل هذه الحقائق من مقامها الواقعي تتجسم وتتمثل بهذه الصور المادية المدركة في عالم الخارج والآية القرآية المباركة: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

تصرح بذلك وتفسيرها مجملاً هو أن الذي يتحقق في عالم المادة عموماً قد كان له قبل تحققه الخارجي حقيقة أخرى بدون لباس التقدير والحد لكنه في حال النزول يتحدد طبق علم الباري تعالى بدرجات معينة ويقدر بالتقديرات الإلهية.
﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسر﴾.

لأن الصورة الخارجية مقدرة ومحددة ومبتلاة بالعوارض المادية من الكون والفساد فهي لعبة بيد الفناء والزوال والنفاد ﴿ما عندكم ينفذ﴾ لكن تلك الحقائق العالية المجردة التي هي بحكم الخزائن فإن وجهتها وجهة التجرد والملكوتية ولا يترتب عليها سوى الثبات ولا دوام والكلية ﴿وما عند الله باق﴾ وإلى هذا المعنى وإلى هذه الحقيقة أشير في الحديث المتفق عليه بين الفريقين:

(نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم).
وهذا الحديث راجع إلى جهة بيان كيفيات الحقائق لا كمياتها ويدل على أن نحن معاشر الأنبياء دائماً نبين الحقائق العالية المتنزلة بحسب فهم وإدراك السامع لأن العقول البشرية لا تستطيع- بسبب التوجه إلى زينة الدنيا وزخارفها وأمانيها الفارغة وآمالها البعيدة والمكدرة- أن تدرك تلك الحقائق بنفس الدرجة من الصفاء والواقعية التي هي عليها لهذا فالأنبياء العظام هم كمن يريد أن يبين للأطفال حقيقة ما، فيضطر إلى إنزالها والتعبير عنها بحسب القوى الإدراكية والحسية للأطفال.

وكم عبر الأنبياء بواسطة مقام الشرع والشريعة (الذين هم حماتها) عن هذه الحقائق الحية بتعابير أوصلت هذه الحقائق إلى درجة فقدان الحس والشعور والحال أن كل واحدة من هذه الظواهر الشرعية من صلاة وصوم وحج وجهاد وصلة رحم وصدقة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر و... لها حقائق حية وهي شاعرة ومدركة.

والسالك هو من يريد أن يزيل بقدم السلوك والمجاهد وبعون الله وتوفيقه كدورة النفس وحجاب العقل في ظل ذل العبودية والتضرع والابتهال ليشاهد بالعقل الظاهر والنفس المضيئة والنورانية الصافية من الغل والشوائب، تلك الحقائق العالية في هذه النشئة المادية والعالم الظلماني. وكم يحدث أن يشاهد السالك كلاً من الوضوء والصلاة بصورته الواقعية ويرى فرقه عن صورته الجسمانية الخارجية بآلاف المراتب من حيث الشعور والإدراك وفي أحاديث الأئمة الأطهار (ع) إشارات ومطالب نفسية حول تلك الصور المثالية للعبادات في عالم البرزخ والقيامة وتكلم الإنسان معها وكما ورد في قضية نطق الجوارح والسمع والبصر في القرآن الكريم.

إذن فالمسجد ليس هو ذلك البناء الحجري بل هو واقعية حية ومدركة وشاعرة كما جاء في الأخبار حول شكاية القرآن والمسجد إلى ربهما يوم القيامة.

يروي أن أحد السالكين كان يوماً طريح الفراش وأثناء تقبله على سريره سمع أنيناً من الأرض فلما استعلم عن السبب أدرك أو قيل له أن هذا الأنين من الأرض إنما كان لفراقك.

بعد أن اتضحت هذه المقدمة نقول الآن أن على السالك أن يثبت من خلال الاستمرار والمداومة على الأعمال تلك الصور الملكوتية المجردة حتى يرتقي من الحال إلى مقام الملكة.

وعليه بواسطة تكرار كل عمل أن يحصل حظه الروحاني والإيماني من ذلك العمل. فما لم يحصل هذا المعنى لا يترك العمل. وهذه الجهة الملكوتية الثابتة للعمل إنما تحصل عند ما يثبت السالك ويداوم على العمل حتى تترسخ الآثار الثابتة للأعمال الفانية الخارجية في أفق النفس بحيث لن تكون بعد التثبيت والاستقرار قابلة للرفع. إذن يجب على السالك أن يسعى لانتخاب العمل الذي يطابق ويناسب استعداده فما لم يكن عازماً على الاستمرار لا يختاره. لأنه عند ترك العمل فإن حقيقته وواقعيته تنهض للمخاصمة فتجمع آثارها وترحل بها، وبالنتيجة تظهر الآثار المضادة للعمل في النفس نعوذ بالله فمعنى المخاصمة، أن السالك لما ترك العمل ارتد هذا العمل وابتعد عنه حاملاً آثاره وخصائصه معه. لأن ذلك العمل كان عملاً نورانياً وخيراً، فعندما يخلو أفق النفس من تلك الآثار النورانية لا مفر من أن تحل محلها آثارها المضادة من الظلمة والكدورة والشرور والحقيقة أنه لا يوجد عند الله إلا الخير وأما الشرور والقبائح والظلمات إنما هي من أنفسنا بناء على هذا فإن كل عيب أو نقص يظهر يكون من البشر (والشر ليس إليك) وعلى هذا الأساس يتضح أيضاً أنه لا اختصاص في الفيوضات الإلهية بل إنها تتجه من الصقع الربوبي ومقام الرحمة اللامتناهية إلى عموم أبناء البشر من المسلم واليهودي والنصراني والمجوسي وعبده النار والأصنام لكن الخصوصيات الموجودة في قابليتهم بسوء اختيارهم تصير سبباً لأن تكون هذه الرحمة الواسعة عند البعض باباً للسرور والبهجة وعند البعض علة لإيجاد الغم والحزن.

السادس: المراقبة

وهي أن يكون السالك في جميع الأحوال مراقباً ومنتبهاً لا يتجاوز تكليفه ولا يتخلف عما عزم عليه.

ومعنى المراقبة عام وهي تتفاوت باختلاف مقامات ودرجات السالكين ومنازلهم. ففي بداية السلوك تكون المراقبة عبارة عن اجتناب كل ما لا يصلح مع الدين ودنيا السالك والابتعاد عما لا يعنيه والسعي حتى لا يصدر منه ما يسخط الله في القول والفعل، ولكن شيئاً فشيئاً تشتد هذه

المراقبة وترتقي درجة فدرجة فقد تكون عبارة عن التوجه والانتباه إلى سكوته أو إلى نفسه وقد تكون أعلى منها من مراتب الحقيقة من السماء والصفات الكلية الإلهية وسوف نبين إن شاء الله مراتبها ودرجاتها.

فليعلم أن المراقبة من أهم شروط السلوك وقد أكد عليها المشايخ العظام بل قد عدها الكثير منهم من اللوازم الحتمية للسير والسلوك لأنها بمنزلة الحجر الأساس. فالذكر والفكر وسائر الشروط الأخرى مبنية عليها. فإذا لم تتحقق المراقبة يبقى الذكر والفكر دون أي أثر والمراقبة بمنزلة اجتناب المريض عن الغذاء اللامناسب والذكر والفكر بمنزلة الدواء. فما لم يحصل للمريض المزاج والبعد عما لا يناسبه. فسيبقى الدواء بلا أثر. بل قد يؤدي إلى نتيجة عكسية لهذا فإن الأساتذة العظام ومشايخ الطريقة منعوا عن الذكر والفكر دون المراقبة وهم ينتخبون الذكر والفكر حسب درجات السالك.

السابع: المحاسبة

وهي عبارة من اتخاذ وقت معين في الليل يقوم خلاله بمحاسبة نفسه عن كل ما عمله في النهار. وإلى هذا الأمر إشارة في حديث الإمام موسى بن جعفر(ع) في قوله: (ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم مرة).

الثامن: المؤاخذة

وهي عبارة عن تأديب النفس بعد صدور الخيانة منها. وينبغي أن يكون ذلك حسب مقتضى الحال.

التاسع: المسارعة

فيسارع إلى ما قد عزم عليه، لأن في هذا الطريق آفات وفي كل مقام من مقامات السالك تنشأ الموانع أن يكون السالك حاذقاً واعياً جداً فيؤدي تكليفه ووظائفه قبل أن يأتي ذلك الموضع ويلوث ساحته، ولا يضيع دقيقة واحدة في سبيل الوصول إلى المقصد.

العاشر: الحب

حب صاحب الشريعة وخلفائه بالحق. فينبغي أن يخلص في هذه المحبة بحيث لا يكون فيها أي غش، ويصل في هذه المرحلة إلى حد الكمال، لأن للمحبة مدخلية عظيمة في التأثير على الأعمال وكلما صارت أكثر وأعظم فإن أثر الأعمال سوف يكون أعظم وأشد رسوخاً.
ولأن كل الموجودات هي مخلوقات الله فعلى السالك أن يحبها جمعياً ويحترم كل واحد حسب مرتبته ودرجته. فالعطف والإشفاق على كل ما ينتسب إلى الله سواء كان حيواناً أو إنساناً كل في مرتبته ومقامه وكل هذا من آثار محبة الله. كما ورد في الحديث: (إن عمدة شعب الإيمان الشفقة على خلق الله) ، إلهي أسالك حبك وحب من يحبك.

الحادي عشر: حفظ الأدب

تجاه الجناب المقدس لحضرة رب العزة وخلفائه وهذا الأمر يختلف عن معنى المحبة الذي ذكر سابقاً فالأدب عبارة عن الالتفات إلى النفس كيلا تتعدى حدودها وتخالف مقتضى العبودية فكل ممكن له حد وحريم مقابل الواجب ولازم حفظ الأدب رعاية مقتضيات عالم الكثرة ولكن الحب انجذاب إلى حضرة الأحدية ولازمه الالتفات إلى الوحدة.

النسبة بين الحب والأدب مثل النسبة بين الواجب والمحرم في الأحكام لأن السالك أثناء أداء الواجب يتوجه إلى المحبوب وفي الاجتناب عن الحرام يتوجه إلى حريمه كيلا يخرج عن حدوده الإمكانية ومقتضى عبوديته وفي الحقيقة فالأدب يرجع إلى جانب اتخاذ الطريق المعتدل بين الخوف والرجاء، ولازم عدم رعاية الأدب كثرة الانبساط لأن تجاوز الحدود غير مطلوب.

كان الميرزا علي القاضي رضوان الله عليه يغلب الحب والانبساط على الخوف عنده وكذلك المرحوم الشيخ محمد البهاري رحمة الله عليه وفي المقابل الميرزا جواد الملكي التبريزي رضوان الله عليه حيث كان مقام خوفه غالباً على الرجاء والانبساط وهذا الأمر مشهود من خلال جوانب وزوايا أحاديثه والذي يكون انبساطه أكثير يقال له (الخراباتي) وأما من يطغي خوفه فيسمى (المناجاتي) ولكن الكمال في رعاية الاعتدال وهو عبارة عن حيازة كمال الانبساط في عين كمال الخوف وهذا الأمر موجود فقط عند الأئمة الأطهار (ع).

نعود إلى صلب الموضوع والنتيجة أن الأدب هو أن لا ينسى الممكن حدوده الإمكانية ولهذا نرى الإمام الصادق (ع) يخر ساجداً لله تعالى عندما يسمع قول أحد فيه وفيه شائبة غلو عن الحق.

والمرتبة الكاملة من الأدب هي أن تعتبر السالك نفسه دائماً وفي جميع الأحوال في محضر حضرة الحق سبحانه وتعالى ويلاحظ الأدب والسكون في حال التكلم والسكوت وفي النوم والأكل في الحركة والسكون وفي تمام الحركات والسكنات، ولو التفت السالك دائماً إلى الأسماء والصفات الإلهية لشاهد الأدب والصغر.

الثاني عشر: النية

وذلك أن لا يكون للسالك قصد من السلوك سوى نفس السلوك والفناء في الذات الأحدية وعلى هذا ينبغي أن يكون سير السالك خالصاً ﴿فاعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقد جاء في العديد من الأخبار أن النية ثلاث مراتب منها ما قاله الصادق (ع): (العباد ثلاثة قوم عبدوا الله خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله طمعاً فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله حباً فتلك عبادة الأحرار).

بالتأمل والتدقيق يتضح أن عبادة الطائفتين الأولين ليست صحيحة بالحقيقة لأن عبادتهم لم تكن لله وإلى الله وإنما يعود إلى عبادة النفس وفي الواقع فإنهم كانوا يعبدون ذواتهم دون الله تعالى لأن عبادتهم كانت من دون تلك العلائق والمشتهيات النفسانية ولأن عبادة النفس لا تجتمع مع عبادة الله إذن حسب المثال الأول هذه الجماعة كافرة بالله ومنكرة له لكن القرآن الكريم ينص على أن أصل عبادة الله فطري في كل البشر ولا يتبدل ولا يتغير في خلقه.

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

إذن فانحراف البشر ليس عن جادة عبادة الله بل عن جادة التوحيد أي عدم الإيمان بوحدانية الله في الفعل والصفة ولهذا نجد القرآن الكريم في كل الأمكنة، ينهض لأجل إثبات توحيد الله ونفي الشريك عنه وعلى هذا الأساس فإن أهل الطائفتين الأوليين يشركون بالله بالقصد، ولا يتركون عبادة النفس أثناء عبادة الله ويؤدون الأفعال العبادية لأجل المقصدين وهذتا هو الشرك. وفي الحقيقة فإنهم مشركون بالله وبنص القرآن لن يغفر لهم. ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وهكذا فإن عبادتهم لن تكون مثمرة أبداً ولن تقربهم إلى الله المتعال. أما الطائفة الثالثة التي تعبد الله على أساس المحبة وهي عبادة الأحرار، وفي بعض الروايات عبادة الكرام فهذا هنا العبادة الصحيحة الواقعية التي لم يصل إليها إلا المطهرون في المحضر إلهي.

والمحبة عبارة عن الانجذاب نحو الحقيقة.

الطائفة الثالثة هم الذين بنوا عبادتهم على أساس المحبة والجذبة إلى الله وليس أي هدف أو مقصد سوى الانجذاب نحوه والتقرب إليه وهذا الانجذاب الذي يشعرون به من ناحية المحبوب هو الداعي والمحرك لهم نحوه وموجب لحركتهم باتجاه ذلك الحريم.

قد جاء في بعض الروايات (أن أعبدوا الحق تعالي من حيث أنه أهل للعبادة ومعلوم أن هذه الأهلية لا تعود إلى الصفات الإلهية بل إلى مقام ذاته المقدسة جل جلاله فيكون مفاد ذلك أن أعبدوا الله لأنه الله).

(إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك...).

(...أنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت).

ويخطو السالك طريق الله في بداية سلوكه بقدم المحبة ولكن بعد أن يطوي المنازل ويحصل الكمال في الإجمال وينتبه إلى أن المحبة أمر مغاير للمحبوب فيسعى لترك المحبة التي كانت حتى هذا الحين وسيلة للسلوك ومعراجاً للرقي. وهذه الوسيلة التي كانت مؤثرة. أصبحت مضرة ومانعة وقاطعة للطريق. ومن هنا يضع السالك فقط وفقط محبوبه أمامه ويعبده بعنوان المحبوبية لا غير، ولكن عندما يتقدم أكثر ويطوي منازل عدة.. يدرك أن غير هذا النوع من العبادة لم يكن خالياً من شائبة شرك. لأنه قد عد نفسه في هذه العبادة لم يكن خالياً ومحباً وأعتبر الله معشوقاً ومحبوباً، والذاتية مغاير لحل المحبوب. لذا فإن النظر إلى المحبوب بوجود عنوان المحب مغاير ومناف لعبادة الذات المقدسة لله تعالى. من هنا يسعى لينسى حب وعشق المحبوب حتى يتجاوز المغايرة والكثرة ويضع قدمه في عالم الوحدة وعندها تختفي النية من السالك وتمحي لأنه لن يكون بعد ذلك شخصية وذاتية حتى يصدر منها نية.

إلى قبل هذه المرحلة كان السالك طالباً للمكاشفة والشهود، ولكنه في هذا المقام ويودع تلك الأغراض كلها في أرض النسيان. فلن يكون بعد ذلك إرادة ليكون اعتبار للمراد والمنوي.

وفي هذه الحالة يغمض السالك عينه عن الرؤية واللارؤية والوصول واللاوصـــول والمعرفـــة واللامعرفة والرد والقبول.

يقول حافظ الشيرازي:
لا تطلب الكرامات من جالسي الخرابات
لكل حديث مكان ولكل مقام مقال

ونقل عن بايزيد البساطمي أن قال: تركت الدنيا في اليوم الأول. وفي اليوم الثاني تركت العقبى وفي اليوم الثالث عبرت عما سوى الله. وفي اليوم الرابع سئلت: ما تريد؟ قلـــت: أريـــد أن لا أريد. وهذه إشارة إلى نفس المطلب الذي يقول به البعض في تعين المنازل الأربعة. الأول: ترك الدنيا. الثاني: ترك العقبى الثالث: ترك المولى. الرابع ترك الترك فتدبر.

والمراد من قطع الطمع عند السالكين هو هذه المرحلة العظيمة الأشكال وعبورها فـــي غايـــة الصعوبة ولا تأتي بهذه السهولة لأن السالك في هذه المرحلة بعد التأمل والتدقيق يجد أنـــه لـــم يكن خالياً من النية في تمام مراحل السير بل كان له غاية ومقصود في سويداء قلبه، وإن كانت تلك الغاية هي العبور من مراحل الضعف والنقص والوصول إلى الكمال والكمالات. ولو ســـعى السالك بواسطة آلة تجريد الذهن والخاطر وضغط على نفسه مرات عديدة ليعبر هـــذه العقبـــة ويجدر نفسه من هذه المعاني المقاصد فلن يحصل على أي نتيجة لأن نفس هذا التجريد مستلزم لعدم التجريد. لأن السالك لابد أن يؤدي هذا التجريد بداعي (الغاية) ونفس هذا الداعي، وهـــذا النظر إلى الغاية دليل وعلامة على عدم التجريد.

ذات يوم طرحت هذا السر على أستاذي المرحوم الميرزا علـــي القاضـــي رضـــوان الله عليـــه والتمست منه حل هذه المعضلة فقال: يمكن حلها بواسطة اعتماد طريقـــة الإحـــراق. وبهـــذه الطريقة ينبغي أن يدرك السالك بالحقيقة أن الله تعالى قد جعل وجوده وجوداً طماعاً وكلما أراد أن يقطع الطمع لن يحصل على نتيجة لأن فطرته جبلت مع الطمع. وقطع الطمع منه لا بـــد أن يؤدي إلى طمع آخر.

فإدراك أن الله قد جعل الإنسان منذ البدء طماعاً مثل إدراك أن الفني المطلق قد خلق العبد منـــذ البداية فقيراً وقد خمر طينته بالفقر، لهذا فإثبات الفقر وإثبات السؤال اللازم لفقر لا يحتاج إلـــى دليل، ولا يستطيع أحد أن يعترض على فقير لماذا يسأل. لأن فرض الفقير هو فـــرض الســـؤال

والحاجة. بناء على هذا فسالك طريق الله إذا طمع أثناء السير والحركة، فينبغي أن ينتبه إلى أن الله قد فطر خلعة وجوده منذ البدء بالطمع ولا يستطيع بأي شكل أن يغلق باب الطمع ويغسل يده منه ومن جانب آخر فالفناء في الذات الأحدية الذي بني على أساس عبادة الأحرار لا يتناسب مع الطمع والنية، فيصاب بالعجز، وتظهر فيه حالة الاضطرار والمذلة بشكل عجيب. وفي هذه الحال يتجاوز نفسه المستلزمه للطمع. وبعد عبور هذه المرحلة لن يكون هناك أنية وذاتية مستلزمه للطمع فأفهم وتأمل جيداً.

بناء على هذا فإذا صار عاجزا عن قطع الطمع ووجد نفسه حقيراً دليلاً أمره عند الله ويرفع اليد عن نية قطع الطمع، وهذا العجز وهذه المذلة تحرقان أساس الطمع من جذوره وتطهرانه وليعلم أن الوصول إلى إدراك هذا المعنى لا يكون نظرياً وبمجرد أعمال النظر والتفكير لا يصل نتيجة، بل أن إدراكه الواقعي يحتاج إلى الذوق وحضور النفس ولو أن أحداً أدرك هذا المعنى مرة واحدة لفهم أن إدراك تمام لذات لدنيا وما فيها لا يساوي هذه الحقيقة.

وسبب تسمية هذه الطريقة بالإحراق هو أنها تحرق أكوام الموجودات والنبات والغصص والمشكلات دفعة واحدة، وتجتثها من الجذور ولا تبقى لها من اثر في وجود السالك.

وقد استفيد من القرآن الكريم في بعض الموارد بالنسبة للطريقة الإحراقية فمن يستخدم هذه الطريقة لأجل الوصول إلى المقصود ويسير في هذا السبيل فإن الطريق الذي يجب طيه في سنوات يطويه في مدة قليلة وأحد المواد التي يستفاد منها في القرآن الكريم كلمة الاسترجاع. ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾

فالإنسان يستطيع حين الشدائد والمصائب ونزول البلايا والفتن أن يسكن نفسه بطرق مختلفة كأن يتذكر بأن الموت للجميع والمصيبة تحل على كل الناس وبهذه الوسيلة تهدأ نفسه شيئاً فشيئاً ولكن الله يقصر الطريق بواسطة الطريقة الإحراقية وتلقين كلمة الاسترجاع ويرفع المشكل مرة واحدة. لأن الإنسان لو تذكر أن نفسه وكل متعلقاتها وما يملكه هو ملك مطلق لله قد أعطي له ذات يوم وسوف يؤاخذونه في يوم آخر، ولاحق لأحد في التدخل فيه عندما يدرك الإنسان جيداً بأنه منذ البدء لم يكن مالكاً، وإنما كان عنوانه الملكية له مجازياً وقد كان يتخيل أنه المالك. فبالطبع لن يتأثر في حال فقدانه. وبالالتفات إلى هذه النقطة فإن الطريق يصبح معبداً أمامه.

الثالث عشر: الصمت

وهو قسمان: سكوت عام ومضاف وسكوت خاص ومطلق فالسكوت العام والمضاف عبارة عن حفظ اللسان من التكلم بالقدر الزائد عن الضرورة مع الناس وبأقل ما يمكن وهذا الصمت لازم في جميع مراحل السلوك وفي كل الأوقات بل يمكن القول بأنه ممدوح في مطلق الأحوال. وإشارة إلى هذا الصمت قوله عليه السلام: إن شيعتنا الخرس وأيضاً ما نقل عن الصادق (ع) في مصباح الشريعة: (الصمت شعار المحبين وفيه رضا الرب وهو من أخلاق الأنبياء وشعار الأصفياء).

وفي حديث البيرنطي عنه عليه السلام: (الصمت باب من أبواب الحكمة وأنه دليل على كل خير)

القسم الثاني: السكوت الخاص والمطلق الذي هو عبارة عن حفظ اللسان من التكلم مع الناس حين الاشتغال بالأذكار الكلامية الحصرية وفي غيرها غير مستحسن.

الرابع عشر: الجوع وقلة الأكل

بحيث لا يؤدي إلى الضعف وتشويش الأحوال. قال الصادق (ع): (الجوع أدام المؤمن وغذاء الروح وطعام القلب).
لأن الجوع موجب للخفة ونورانية النفس ويمكن للفكر في حال الجوع أن يحلق إلى الأعلى. أما كثرة الكل والشبع فإنه يتعب النفس ويمللها ويثقلها ويمنعها من السير في سماء المعرفة. والصوم من العبادات الممدوحة جداً وفي الروايات المعراجية التي يخاطب الله تعالى فيها حبيبه بـ (يا أحمد)، وفي إرشاد الديلمي والجزء ١٧ من بحار الأنوار يوجد تفاصيل عجيبة بشأن الجوع تبين خصائصه في السير والسلوك بشكل مدهش. وينقل المرحوم الأستاذ القاضي رضوان الله عليه رواية غريبة بشأن الجوع وهي : أنه كان في زمان الأنبياء الماضين ثلاثة رجال قد تصاحبوا في سفر عندما حان الليل تفرق كل واحد منهم للاستراحة واتفقوا على الالتقاء في اليوم التالي في وقت محدد أحدهم نزل ضيفاً عند معارفه والآخر نزل في إحدى المضايف وأما الثالث فلم يكن معه ما يمكنه من الكل في ذلك الوقت فقال في نفسه: فلأذهب إلى المسجد وأكون ضيفاً عند الله وفي اليوم التالي التقوا على الموعد المحدد. وأخذ كل واحد منهم يروي ما حصل له في الأمس فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لضيفنا: أننا قبلنا ضيافته وقد أردنا أن نحضر له أفضل غذاء لكن عندما بحثنا في خزائن الغيب لم نجد له أفضل من الجوع غذاء.

الخامس عشر: العزلة

وهي على شكلين: العزلة العامة والعزلة الخاصة

العزلة العامة عبارة عن اجتناب واعتزال غير أهل الله وبالخصوص أصحاب العقول الضعيفة من عوام الناس بقدر الإمكان. ﴿وذروا الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ وأما العزلة الخاصة فهي عبارة عن الابتعاد عن جميع الناس وهي وإن كانت غير خالية من الفضيلة في جميع العبادات والأذكار إلا أنها تعتبر عند مشايخ الطريق شرطاً في طائفة من الأذكار الكلامية بل في جميعها.

العزلة والابتعاد عن محل الازدحام والغوغاء والأصوات المشوشة للحال وحلية المكان وطهارته حتى السقف والجدران وصغره بحيث لا يسع أكثر من شخص واحد والسعي أن لا يكون فيه أي زخارف دنيوية كل هذه باعثه على تركيز الحواس.

يروي أن أحد الأشخاص طلب من سلمان الفارسي (رض) أن يجيز له بناء بيت للصحابي الجليل لأنه لم يكن قد أمتلك بيتاً حتى ذلك الزمان، ولما لم يجز له سلمان.. قال: أنا أعرف لماذا لا تريد. فقال سلمان: ما هو؟ فقال البناء: سبب ذلك أنك تريد بيتاً يكون طوله وعرضه بقياسك، وهذا ليس ميسوراً فقال سلمان: بلى قد صدقت وبعدها أخذ البناء إجازة لبناء مثل ذلك البيت وبناه.

السادس عشر: السهر

وهو الاستيقاظ في السحر بقدر ما تتحمله طبيعة السالك وفي ذم النوم وقت السحر ومدح القيام فيه. قوله تعالى:
﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾

السابع عشر: المداومة على الطهارة

وهو الدوام على الوضوء والاغسال الواجبة وغسل الجمعة وسائر الاغسال المستحبة بقدر التمكن.

الثامن عشر: المبالغة في التضرع والمسكنة والبكاء والتذلل

التاسع عشر: الاحتراز من اللذائذ والمشتهيات بقدر الاستطاعة والاكتفاء بما يقوم عليه البدن والحياة.

العشرون: كتمان السر

وهو من الشروط المهمة جداً وقد أهتم به عظماء الطريق كثيراً وأمعنوا في توصية تلامذتهم به، سواء كان في العمل والأوراد والأذكار في الواردات والمكاشفات والحالات، واعتبروا التورية في الموارد التي تكون التقية غير ممكنة ويقرب إفشاء السر من اللوازم والتعاليم وحتى لو كان كتمان السر مستلزماً لترك العمل فيجب رفع اليد عنه. (واستعينوا على حوائجكم بالكتمان).

بالتقية والكتمان تتقلص المصائب والشدائد بالمقدار المعتنى به، وترك التقية يؤدي إلى الفتن والبلاءات والمصائب. إضافة إلى هذا فحين بروز المشكلات ينبغي أن يواصل الطريق بالتحمل والصبر حتى ينجح.
﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾

المراد من الصلاة في هذه الآية هو نفس المعنى اللغوي أي الالتفات إلى الرب العظيم وهكذا فبذكر الله والصبر والتحمل تخف الشدائد والمصائب ويسير نحو النصر والنجاح. ولهذا نجد أن نفس أولئك الذين ينتحبون في بيوتهم إذا قطعت أيديهم نجدهم في ميدان الجهاد ومقاتلة أعداء الدين لا يخافون من أن تقطع أيديهم الجهاد وأرجلهم ومقاتله أعداء الدين لا يخافون من أن تقطع أيديهم وأرجلهم وسائر أعضائهم بل أنهم لا يشعرون في أنفسهم بأي ضعف أو خوف. على أساس هذه القاعدة الكلية أوصى الأئمة الأطهار (ع) بكتمان الأسرار في وصايا عديدة وعجيبة إلى درجة أنهم عدوا ترك التقية من الذنوب الكبيرة.

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قلت له أخبرني عن الله عزوجل! هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة فقلت متى؟ قال: حين قال لهم ألست بربكم قالوا بلى، ثم سكت ساعة ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة الست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير فقلت له: جعلت فداك فاحدث بهذا عنك؟ فقال: لا فإنك إذا

حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثم قدر إن ذلك تشبيه كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين. تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون.

الواحد والعشرون: الشيخ والأستاذ

وهو قسمان: أستاذ عام وأستاذ خاص. الأستاذ العام لا يكون موكولاً بخصوص الهداية والرجوع إليه هو من باب الرجوع إلى أهل الخبرة وهو في عموم: (فاسألوا أهل الذكر أن كنت لا تعلمون) ولزوم الرجوع إلى الأستاذ العام يكون فقط في بداية السير والسلوك أما عندما يشرف السالك للمشاهدات والتجليات الصفاتية والذاتية فلا تعود الصحبة له لازمة.

وأما الأستاذ الخاص والمختص للإرشاد والهداية فهو رسول الله وخلفاؤه بالحق ولا ينفك السالك في أي حال من الأحوال عن ملازمته وإن كان واصلاً إلى الوطن المقصود.

بالطبع المراد للسالك هو المرافقة الباطنية للإمام، وليس فقط الصحبة والملازمة في مقام الظاهر لأن حقيقة وواقعية الإمام هي مقامه النوراني الذي له سلطة على العالم والعالمين وأما بدنه العنصري فهو وإن كان يمتاز عن سائر البدن لكنه ليس منشأ للآثار ولا متصرفاً في أمور الكائنات ولتوضيح هذه المسألة نذكر بأن الذي يتحقق في عالم الخلقة، إنما منشؤه الصفات والأسماء الإلهية وحقيقة الإمام هي أسماء وصفات الله ولهذا قالوا عليهم السلام بأن دائرة عالم الوجود والأفلاك وجميع الكائنات تتحرك بأيدينا. وما يحدث أنما يحدث بإذننا بنا عرف الله بنا عبد الله. إذن فالسالك في حال السير إنما يسر في المراتب النورانية للإمام وكلما صعد درجة أو مرتبة فإن هذه الدرجة أو المرتبة هي في حيازة الإمام الذي يكون له معية مع السالك في تلك الدرجة أو المرتبة. وكذلك بعد الوصول أيضاً فإن مرافقة الإمام لأزمة لأن الدولة اللاهوت آداباً يجب أن يعلمها الإمام السالك.

فمرافقة الإمام في جميع الحالات من الشروط المهمة بل من أهم شروط السلوك وهنا ملاحظات مهمة لن يتيسر بيانها على السالك أن يدرك حقائقها بواسطة الذوق.

يروي أن محي الدين العربي ذهب يوماً إلى أستاذه وشكى إليه كثرة الظلم والعصيان فقال له: توجه إلى الهك. ثم ذهب بعد مدة إلى أستاذ آخر وحكى له عن الظلم وشيوع المعاصي فقال الأستاذ: توجه إلى نفسك. وعندما سمع ذلك بدأ بالبكاء ملتمساً من الأستاذ بيان سبب اختلاف

الإجابات، فقال له : أيها السالك أن الأجوبة واحدة. فهو قد دعاك إلى الرفيق وأنا دعوتك إلى الطريق.

نحن أوردنا هذه القصة هنا يعلم أن السير إلى الله لا يتنافى مع السير في مراتب الأسماء والصفات الإلهية التي هي نفس مقام الإمام بل إنهما قريباً جداً). لا بل واحدة حقاً ولا يوجد اثنينية في هذه المرحلة، بل كل ما هو موجود نوراُ واحد هو نور الله وغاية الأمر أنه يعبر عن ذلك النور بتعابير مختلفة أحيانا بالأسماء والصفات الإلهية وأحياناً بحقيقة الإمام ونورانيته.

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

أما الأستاذ العام فلا يعرف إلا بالصحبة والرفقة في الخلأ والملأ حتى يدرك السالك بشكل يقيني واقعيته وحقيقته. وظهور خوارق العادات والإطلاع على المغيبات وأسرار خواطر الناس والعبور فوق الماء وأمثال هذه الغرائب والعجائب لا يمكن أن تكون دليلاً على وصول صاحبها لأن هذه كلها إنما تحصل في مرتبة المكاشفات الروحية ومن هنا إلى حد الوصول والكمال يوجد طريق بلا نهاية.

وإلى ذلك الحين الذي لم يظهر في الأستاذ التجليات الذاتية الربانية فهو ليس بأستاذ، ولا يمكن الاكتفاء بمجرد التجليات الصفاتية والاسمائية واعتبارها كاشفة عن الوصول والكمال.

المقصود من التجلي الصفاتي هو أن السالك يشاهد في نفسه صفة الله، فيرى علمه أو قدرته أو حياته حياة وعلم وقدرة الله. كأن يدرك أن الشيء الذي يسمعه قد سمعه الله وهو السميع أو يدرك أن الشيء الذي يراه قد رآه الله وهو البصير أو أن العلم في العالم منحصر بالله ويشاهد علم كل موجود أنه مستند إلى علمه بل هو نفس علمه.

والمراد من التجلي الأسمائي هو أن يشاهد في نفسه صفات الله المستندة إلى ذاته مثل القائم العالم السميع البصير الحي القدير وأمثالها. كأن يرى أن العليم في العالم واحد وهو الله تعالى. ولا يرى نفسه عليماً مقابل الله. بل أن كونه عليماً هو عين كون الله عليماً. أو أن يدرك أن الحي واحد وهو الله. وهو ليس حياً أصلاً بل الحي هو الله فقط. وأخيراً أن يدرك أن (ليس القدير والعليم والحي إلا هو تعالى وتقدس) وبالطبع يمكن أن يتحقق التجلي الأسمائي في خصوص بعض الأسماء الإلهية، ولا يلزم من تجلي واحد أو أثنين في السالك أن تتجلى البقية فيه.

أما التجلي الذاتي فهو أن يتجلى الذات المقدسة للباري تعالى في السالك وهذا إنما يحصل بعد أن يعبر السالك من الأسم والرسم وبعبارة أخرى حينما يكون قد فقد نفسه كلياً فلا يجد أثراً لذاته في عالم الوجود ويودع الذات والذاتية دفعة واحدة في أرض النسيان و(ليس هناك إلا الله) وعندها فلا يتصور بعد ذلك ضلال وضياع لمثل هذا الإنسان لأنه ما دام هناك ذرة من الوجود في السالك، فإن طمع الشيطان لم ينقطع عنه، وما زال يأمل في إضلاله وغوايته ولكن عندما يطوي السالك بحول الله وقوته بساط الذاتية والشخصية ويدخل عالم اللاهوت ويرد إلى حرم الله، ويرتدي لباس الإحرام ويشرف للتجليات الذاتية الربانية فإن الشيطان ييأس من غوايته ويغلق باب الطمع في إضلاله ويجلس محسوراً يجب أن يصل الأستاذ العام إلى هذه المرتبة من الكمال، وإلا فإنه لن يؤثر على أي إنسان ويجعله مطيعاً ومنقاداً.

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كثيرون وأما الواصلون قليل

إذن، لا ينبغي أن يسلم الإنسان لكل من عرض متاعه وأظهر بضاعته وادعي الكشف الشهود، نعم، ينبغي أن يتوكل على الله في المكان الذي يكون التحقيق والفحص في أمر الأستاذ متعذراً وصعباً ويعرض كل ما يسمعه منه ويأمر به على كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة الأئمة الأطهار (ع) ، فإذا وافق العمل به وإلا فلا يرتب عليه أثرا.

ولن يكون للشيطان أي سلطة على من يسير بقدم التوكل على الله. ﴿أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

الثاني والعشرون: الورد

وهو عبارة عن الأذكار والأوراد اللسانية وكيفيتها وكميتها منوطه بنظر الأستاذ لأنها مثل الدواء بعضها نافع وبعضها ضار، وقد يحدث أن يشتغل السالك بنوعين من الذكر أحدهما يوجهه إلى الكثير والآخر إلى الوحدة وفي حال اجتماعهما تكون النتيجة أن يبطل كل منهما الآخر فلا يعود عليه بفائدة. فالأستاذ إذن شرط في الأوراد التي لم تأت بخصوصها إذن عام وأما التي جاء فيها إذن عام فلا مانع من الاشتغال بها.

الورد على أربعة أقسام: قالبي وخفي ، وكل منهما إما إطلاقي أو حصري وأهل السلوك لا يعتنون بالقالبي لأن الذكر القالبي عبارة عن تلفظ اللسان بدون الالتفات إلى المعنى. وفي الواقع

من هو لقلقة لسان. ولأن السالك يبحث عن المعنى لا عن شيء آخر فلن يكون الذكر القالبي مفيداً له.

الثالث والعشرون، الرابع والعشرون، الخامس والعشرون: نفي الخواطر، الذكر، الفكر

وهذه المراحل الثلاث من مهمات الوصول إلى المقصد، وأكثر الذين انقطعوا في الطريق ولم يتمكنوا من الوصول إلى المقصد توقفهم عند إحدى هذه الثلاث. وهم إما توفقوا أو أصبحوا عرضة للهلاك والبوار فأخطار هذه المنازل عبارة عن عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والنار والزندقة والفرعونية وإدعاء الحلول والاتحاد ونفي التكليف، والإباحة وأمثالها وسوف يشار إلى جمعيها ولكننا الآن نبين بشكل مجمل الحلول والاتحاد الذين الذهن بواسطة نفي الخواطر. فالسالك لأنه لم يكن قد خرج من وادي الاسم والرسم، لهذا والعياذ بالله من الممكن وعلى أثر ومع شخصيته وهذا هو معنى الحلول والاتحاد وهو كفر وشرك. والحال أن معنى وحدة الوجود ينفي كلياً معنى التعدد والتغير. ويعد تمام الموجودات المتصورة مقابل الوجود المقدس لحضرة الاحدية من الوهميات ويعتبرها ظلالاً والسالك بواسطة الارتقاء إلى هذا المقام يفقد تمام وجوده ويضيع ذاته ويصير فانياً ولا يدرك ذا وجود غير الذات المقدسة في عالم الوجود. ليس في الدار غيره ديار، فأين هذا وأين الحلول والاتحاد؟!

أما نفي الخواطر: فهو عبارة عن تسخير القلب والتحكم فيه حتى لا يقول قولاً أو يعمل عملاً أو ترد عليه خاطرة أو تصور إلا بإذن صاحبه واختياره وتحصيل هذه الحالة صعب جداً ولهذا قالوا أن نفي الخواطر من أعظم مطهرات السر. فالسالك عندما يسير في مقام نفي الخواطر يلتفت فجأة إلى أن سيلاً جارفاً من الخواطر والأوهام والخيالات قد أحاط به وحتى تلك الخواطر التي لم يكن يتصور أن تخطر على باله، من وقائع الماضي المختبئ أو الخيالات المستحيلة الوقوع فإنها تجد طريقاً إليه لتشعله بنفسها دائماً.

ينبغي للسالك في هذا المقام أن يبقى ثابتاً مثل الجبال الرواسي أمام كل خاطرة تظهر لتزاحمه، فيهلكها ويقطعها بسيف الذكر. والمراد بالذكر هنا هو الأسماء الإلهية التي يتوجه السالك حين بروز الخواطر إلى واحدة منها، ويمسك نفسه على التوجه إليها مراقباً بالعين والقلب حتى تخرج الخواطر من بيت القلب. وهذا الطريق صحيح جداً حيث يجب أن تطرد الخواطر وتبعد بالذكر فقط. ذلك الذكر الذي هو التوجه إلى أحد أسماء الله. قال تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾

ولكن، جاء في الرسالة المنسوبة إلى المرحوم بحر العلوم عدم جواز هذه الطريقة وهو يجوز بقوة بأن ننفي الخواطر بسيف الذكر خطر جداً ونحن هنا نذكر إجمالاً ما ورد هناك، ثم نتعرض له بالرد قال(ره): (كثير من المتشيخين يعلمون طي مرحلة نفي الخواطر بالذكر بديهي أن المراد من الذكر الالتفات والتوجه القلبي لا الذكر اللساني الذي يصطلح عليه بالورد). وهذا خطر جداُ، لأن حقيقة الذكر عبارة عن ملاحظة المحبوب وقصر النظر على جماله من بعيد ولأن المحبوب غيور من غيرته أن العين التي تنظر إليه لا ينبغي أن تنظر إلى غيرهن فرؤيته ورؤية غيره ضد غيرته، وإذا تكرر هذا الأمر فسوف يكون بمنزلة الاستهزاء والمحبوب يرد على هذا الاستهزاء بحيث لا يبقى للناظر نظر آخر).

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾

نعم، هناك نوع من الذكر جائز في نفي الخواطر، وهو أن لا يكون المراد من الذكر النظر إلى المحبوب بل ردع الشيطان، مثل الذي يريد أن يخرج الآخرين من المجلس فيدعو محبوبه فالغرض هنا التخويف وتهديد الغير، وبهذه الطريقة إذا هجم عليه خاطر في حال الاشتغال بنفي الخواطر بحيث يصعب دفعه، يشتغل بالذكر من أجل رفعه، أما طريقة محققي الطريق والعرفاء الواصلين، فهي أنهم يأمرون المبتدئين أول الأمر حين تعليمهم وإرشادهم، بنفي الخواطر ومن ثم الاشتغال بالذكر. ولأجل هذا يأمرون السالك أولاً بالتوجه إلى شيء من المحسوسات كالحجر أو الخشب وتركيز النظر عليه مدة. ومهما أمكنه لا يزيل نظره عنه، ويتجه إليه بجميع قواه الظاهرية والباطنية والأفضل أن يداوم على ذلك أربعين يوماً، وأثناء هذه المدة يستفيد من الأذكار الثلاثة (الاستعاذة) والاستغفار وذكر (يا فعال) ويشتغل بها بعد فريضتي الصبح والعشاء. بعد هذه المدة يتوجه إلى القلب الصنوبري ويداوم عليه مدة أخرى متوجهاً إليه بالتمام ولا يسمح لخيال آخر غير هذا الخيال أن يجد طريقاً إليه وخلال هذا العمل لو هجم خاطراً أو عرض تشويش فإنه يستمد من كلمة (لا موجود إلا الله) وكلمة الله فيداوم على هذا العمل مدة حتى يحصل له الذهول عن النفس. ويكون الذكر خلال هذه المدة (الاستغفار) و (يا فعال). والمداومة على اسم (يا باسط) وعندما يصل السالك إلى هذه المرحلة يؤذن له أن يتم بقية مرحلة نفي الخواطر بواسطة الذكر النفسي الخيالي حتى يندفع الخاطر مطلقاً لأن بقية الخواطر سوف تندفع بذاتها بالدخول ففي مراتب الذكر والفكر إن شاء الله . انتهى ملخصه.

فليعلم أن طريقة نفي الخواطر هذه مأخوذة من الطريقة النقشبندية، والنقشبندية جماعة من الصوفية تتوارى في صفحات تركيا وبعض المناطق الأخرى. وكان مرشدهم الخواجة محمد النقشبند. فلذا عرفوا بالنقشبندية.

أما طريقة المرحوم الملاحسينقلي الهمداني (رض) فلم تكن هكذا ولم يعمل هو أو تلامذته على نفي الخواطر دون الذكر العملي. فكانت نظريتهم عبارة عن الالتزام بالمراقبة، أي الاهتمام بمراتبها وقد ذكرنا هذا قبلاً وهنا سوف نبينه بشكل مفصل.

أول درجات المراقبة، أن يتجنب السالك المحرمات ويؤدي كل الواجبات ولا يتسامح في هذا الأمر بأي وجه من الوجوه.

والدرجة الثانية: أن يتشدد فيها ويسعى أن يكون كل ما يعمله لرضا الله تعالى ويتجنب كل ما يسمى لهواً ولعباً وباهتمامه بهذه المرتبة يحصل له التمكن بحيث لا يضعف بعدها. ليوصل هذه التقوى إلى حد الملكة.

الدرجة الثالثة: هي أن يرى رب العالم دائم النظر إليه وشيئاً فشيئاً يعترف ويذعن بأن الله المتعال حاضر في كل مكان وناظر إلى كل المخلوقات ويجب أن تراعي هذه المراقبة في كل الحالات وفي جميع الأوقات.

الدرجة الرابعة: وهي أعلى وأكمل من هذه المرتبة وهي أن يرى بنفسه الله حاضراً وناظراً وبشكل مجمل يشاهد الجمال الإلهي وفي وصية الرسول الأكرم (ص) إلى أبي ذر إشارة إلى هاتين المرتبتين الأخيرتين من المراقبة: (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وعلى هذا فإن العبادة في المرحلة التي يراه الله فيها هي أدنى من المرتبة التي يرى هو الله فيها.

عندما يصل السالك إلى هذه المرتبة فلكي يتمكن من إخراج الاغيار من ذهنه كلياً ينبغي أن يقوم بنفي الخواطر ضمن أحد الأعمال العبادية ولا يجوز في الشرع المقدس أن يتوجه إلى صخرة أو خشبة، فماذا سيكون جوابه إذا أدركه الموت في هذه اللحظات من التوجه؟ وما نفي الخواطر بالذكر وبحرية الفكر فهو عبادة وممدوح من قبل الشرع وأفضل طرقه التوجه إلى النفس الذي هو أسرع الطرق للوصول إلى المقصد لأن التوجه إلى النفس ممدوح ومقبول من الشرع الأنور، والكريمة الشريفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ تشير إلى هذا. وطريقة التوجه إلى النفس كانت المرحوم الملاحسينقلي، وقد سلك تلامذته جمعياً هذا الطريق المستلزم لمعرفة الرب.

حقيقة العرفان مأثورة عن أمير المؤمنين (ع) والطرق التي نشرت هذه الحقيقة بالتواتر تتجاوز المئة، بينما لا تتجاوز أصول جماعات التصوف الـ٢٥ مجموعة، وجميع هذه السلاسل تنتهي إلى أمير المؤمنين (ع) ومن بين هذه الجماعات اثنتان أو ثلاث منها من الخاصة والبقية من العامة، وبعض هذه السلاسل تنتهي إلى (المعروف الكرخي) الذي يعود إلى الإمام الرضا (ع) أما طريقتنا أي طريقة المرحوم الملا حسينقلي فهي لا تنتهي إلى أي واحدة منها.

فقبل أكثر من ١٠٠ سنة كان يعيش في "شوشتر" عالم الجليل القدر وكان هذه العوالم مرجعاً للناس في القضاء والأمور العامة ويدعى السيد علي الشوشتري.
في أحد الأيام طرق بابه أحد الأشخاص وهو يقول : لي عمل معك. عندما فتح السيد باباً رأى نساجاً فقال له ما لديك؟ فأجاب بأن الحكم الفلاني الذي حكمت به طبق دعوى شهادة فلان بملكية فلان غير صحيح. وذلك الملك لطفل يتيم وسنده مدفون في المحل الفلاني. إن ما قمت به ليس صحيحاً وهذا ليس نهجك فيجيبه آية الله الشوشتري: أوقعت في خطأ؟
فأجاب النساج: الكلام هو ما قلته ثم انصرف ففكر السيد الشوشتري طويلاً: وتساءل فيمن يكون هذا الرجل، وماذا قال ثم يقوم بالتحقيق ويتبين له أن سند ملكية الطفل مدفون في ذلك المكان وقد كان الشهود على ملكية فلان شهود زور. فارتعب كثيراً وقال في نفسه: ربما كانت كثير الأحكام التي أصدرتها من هذا القبيل فأخذه الاضطراب والخوف في الليلة التالية وفي نفس الوقت يطرق النساج الباب من جديد ويقول له: يا سيد علي إن هذا ليس هو الطريق الذي تسير فيه، وفي الليلة الثالثة تتكرر هذه الواقعة بنفس الكيفية ويقول له النساج: لا تتأخر واجمع الأثاث وبع البيت فوراً ثم اتجه إلى النجف الأشرف وأفعل ما أقوله لك وبعد ستة أشهر كن بانتظاري في وادي السلام عناك. فقام السيد لتوه وباع البيت وجمع الأثاث ثم تهيأ للسفر إلى النجف. وفي اللحظة الأولى من دخوله المدينة الشريفة يرى الرجل ذاته عند طلوع الشمس في وادي السلام وكأنه نبع من الأرض فيقف أمامه ويعطيه بعض التعليمات ثم يختفي. ويدخل العلامة إلى المدينة عاملاً طبق تعليمات ذلك النساج ليصل بعدها إلى درجة ومقام لا يمكن وصفهما رضوان الله عليه وسلام الله عليه.
وكان السيد علي الشوشتري ومراعاة للاحترام يحضر دروس الفقه والأصول للشيخ الأنصاري الذي كان بدوره يحضر دروس السيد الأسبوعية في الأخلاق. وبعد وفاة الشيخ (ره) يجلس السيد الشوشتري مكانه مدرساً ومكملاً أبحاثه. ولكن الأجل لم يمهله طويلاً فبعد ستة أشهر يلتحق بالرفيق الأعلى. خلال هذه المدة (الستة أشهر) يكتب المرحوم الشوشتري ورقة إلى أحد تلامذة الشيخ الأنصاري البارزين، المدعو الملا حسينقلي الهمداني- الذي كان له مع السيد علاقة في أيام المرحوم الأنصاري وكان يستفيد منه في الأخلاق والعرفان، بعد وفاة الشيخ

الأنصاري كان عازماً على التدريس وإتمام مباحث الشيخ التي كان يحررها بنفسه- وفي هذه الورقة يذكره ويكتب له بأن نهجكم هذا ليس كاملاً فأنتم ينبغي أن تحوزوا المقامات العالية أيضاً مما يحدث فيه انقلاباً ويرشده إلى وادي الحق والحقيقة. نعم فالمرحوم الآخوند حسينقلي الذي كان يستفيد قبل سنوات من وفاة العلامة الأنصاري من محضر المرحوم السيد في المعارف الإلهي، يصير من أعاظم الدهر وعجائبه في الأخلاق ومجاهدة النفس وكسب المعارف الإلهية وقد ربى تلامذة عظاماً أصبح كل واحد منهم آية عظيمة وواحداً من أساطين المعرفة والتوحيد. ومن أبرزهم الميرزا جواد الملكي التبريزي والمرحوم السيد أحمد الكربلائي والمرحوم السيد محمد سعيد الحبوبي والمرحوم الشيخ محمد البهاري.

ومن طلبة مدرسة السيد أحمد الكربلائي (ره) كان الأستاذ الأعظم والعارف بلا مثيل الميرزا علي القاضي التبريزي (رض) هذه هي سلسلة أساتذتنا التي تعود إلى المرحوم الشوشتري وأخيراً إلى النساج فمن كان هذا النساج؟ وبمن يتصل؟ ومن أين كان يحصل على هذه المعارف وبأي وسيلة؟ لا نعلم شيئاً من ذلك.

ورؤية الأستاذ القاضي مطابقة لرؤية الأستاذ الكبير الملا حسينقلي، أي طريقة معرفة النفس. ولأجل نفي الخواطر كانوا يأمرون في المرحلة الأولى بالتوجه إلى النفس. فبهذه الطريقة ينبغي أن يعين السالك كل ليلة مقدار نصف ساعة لنفي الخواطر وفيها يتوجه إلى نفسه.

شيئاُ فشيئاً على أثر التوجه يقوى وتزول عنه الخواطر وتحصل له معرفة النفس وسوف يصل إلى الوطن المقصود إن شاء الله. وأكثر الذين وقفوا لنفي الخواطر واستطاعوا أن يطهروا أذهانهم ويصفوها إلى إن ظهر لهم سلطان المعرفة إنما كان ذلك في إحدى هاتين الحالتين:

الأولى: حين تلاوة القرآن المجيد والالتفات إلى قارئه إنه من الذي يقرأ القرآن في الحقيقة وخلال ذلك الوقت ينكشف لهم أن قارئ القرآن هو الله عزوجل.

الثانية: بطريقة التوسل بحضرة أبي عبدالله الحسين (ع) لأن له عليه السلام عنايات عظيمة لأجل رفع الحجاب وموانع الطريق عن سالكي طريق الله.

وبناء على ما ذكر فإن لشيئين مهمين مدخليه عظيمة في تجلي سلطان المعرفة. الاول مراقبة جميع المراتب. الثاني التوجه إلى النفس. فعندما يهتم السالك تنبع من عين واحدة وكل ما يتحقق فيه هو من مصدر واحد. وفي أي موجود، فإن كل مقدار من النور والجمال والبهاء قد

أفيض من تلك العين. وذلك المصدر العظيم يفيض على كل موجود سعة وجـوده- التـي هـي قابلياته الماهوية- بنور الوجود والجمال والعظمة.

وبعبارة أخرى فإن الفيض من جانب الفياض المطلق يفاض بشكل مطلق وبدون قيـد وشـرط أوحد. وكل موجود يأخذ منه بقدر ما هيته.

وتنكشف للسالك نتيجة للمراقبة التامة والاهتمام الشديد بها وعلى أثر التوجه إلى النفس هـذه العوالم الأربعة وبشكل تدريجي.

العالم الأول: توحيد الأفعال أي يدرك السالك في المرحلة الأولى أن كل ما تراه العـين ويلفظـه اللسان وتسمعه الأذن وتقوم به اليد والرجل وسائر الأعضاء والجوارح كله جميعاً يستند إلـى النفس وهي مصدر جميع الأفعال في الخارج ثم يدرك أن نفسه قائمة بذات الحق. وهي دوحـة من فيوضات الله، ورحمته فجميع الأفعال في العالم الخارجي تستند إلى ذاته المقدسة.

العالم الثاني: توحيد الصفات الذي يظهر بعد العالم الأول وهذا العالم عبـارة عـن أن لا يـرى السالك حقيقة سمع ما يسمع من نفسه بل من الله وكذلك كل ما تراه عينه إنما يدركه مـن الله. وبعدها يجد كل شكل من أشكال العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر وغير ذلك مما يشاهد من الموجودات الخارجية إنما يستند إلى الله تعالى.

العالم الثالث: التوحيد في الأسماء وهو يبرز بعد العالم الثاني وهذا عبـارة عـن أن يـدرك أن الصفات قائمة بالذات كأن يجد أن العالم والقادر والحي هو الله المتعـال، فيـدرك أن عالميتـه عالمية الله وقدرته وسمعيته وبصيرته كلها في الله لا غير. وبشكل عام يجد أن الحي والقـادر والعالم والسميع والبصير في كل العوالم هو واحد فقط، وهو الله جل جلاله وكل موجـود مـن الموجودات يحكي بقدر سعة وجوده عن ذلك العالم والقادر والسميع والبصـير والحـي ويـدل عليه.

العالم الرابع: التوحيد في الذات الذي هو أعلى من العالم الثالـث ويكشـف للسـالك بواسـطة التجليات الذاتية أي أن السالك يدرك أن تلك الذات التي تستند إليها جميـع الأفعـال والصـفات والأسماء هي ذات واحدة حقيقة واحدة تقوم جمعيها بها. وهنا لن يعود السالك توجه إلى الاسم والصفة بل إن مشهودة هو الذات فحسب وهذا حين يودع وجوده المستعار ويسلب الوجود عن نفسه دفعة واحدة ويفني في الذات المقدسة لحضرة الحق حينها سوف يحصل التجلي الـذاتي،

وبالطبع فإن تسمية هذه المرحلة باسم مقام الذات الحقيقة أو حقيقة الذات إنما هو من ضيق الخناق. لأن كل ما يكتب بالقلم أو يأتي فوق الاسم والأسماء ولا يمكن إطلاق اسم عليها ولا يمكن تصور مرحلة ومقام لها بل هي أعلى من هذا اللا أمكان لأن اللا أمكان هو في عين السلب والنفي إثبات حدي، والحق تعالى أعلى من الحد فإذا دخل السالك إلى هذا المنزل وقد ضيع اسمه ورسمه، عندها لن يعرف نفسه أو أحداً آخر غير الله، بل الله يعرفه وفقط.

فالسالك يفقد في كل واحد من هذه العوالم الأربعة مقداراً من أثر وجوده ويضيعه إلى أن يضيع في الآخر أصل وجوده.

ففي العالم الأول الذي يصل فيه إلى مقام الفناء في الفعل يفهم أن الفعل لا يصدر منه بل من الله وهنا يفقد تمام آثاره الفعلية.

وفي العالم الثاني عندما يصل إلى التجلي الصفاتي يفهم أن العلم والقدرة وسائر الصفات تختص وتنحصر بذات الحق سبحانه وتعالى وهنا يفقد صفاته ويضيعها فلا يجدها بعد ذلك في ذاته.

وفي العالم الثالث عندما يحصل التجلي ألأسمائي يدرك أن العالم والقادر هو الله جل جلاله. وهنا يضيع أسماءه، فلا يجدها بعد ذلك فيه.

وفي العالم الرابع الذي هو التجلي الذاتي يضيع وجوده ويفقد ذاته فلا يجدها بعد ذلك أبداً وإنما الذات هي ذات الله المقدسة.

هذه المرحلة من الشهود أي التجلي الذاتي يعبر عنها العارفون بالعنقاء لأن العنقاء موجود لا يصيده أحد أبداً وهي الذات البحتة والوجود الصرف الذي يعبر عنه (بعالم العمى) و(الكنز المخفي) و(غيب الغيوب) و(الذات التي لا اسم لها ولا رسم).

اذهب ضع الشراك لغيرها فالعنقاء في الأعالي عشها

ما أجمل ما ينظمه حافظ الشيرازي في مثنوياته، وباستعاراته اللطيفة ينشد:

ألا أيها المهى الوحشي أين أنت	**فهل نسيت صديق العمر**
غريبين كنا معا حائرين دون خليل	**فالسبع اليوم وراءنا والشراك في الأثر**

تعال يا غريب نشكو معا غربتـنا	وعن المراد نبـحـث فـي وحـدتنا
فانا لا أنسى أبداً ما قاله الشـيخ	ولا هو زال من صفـحة الذكـر
يوماً رأى سالـك شـيـخـا	وحيداً غائصا في عالم الـفـكـر
قال يا سالك مـا معـك من زاد	حباً وأغرس هنا وانـتـظـر
أجابه أجل معـي حـبـاُ	ولكني ذاهب لصيد عنـقـاء
فهذا الصيد وإن كان محـالاً	ولكن وبال من يقطع الرجـاء
أيمكن لي بدون الخضر صـيداُ	وهو الوحيد إلى وحيد دليـل

من المعروف أن المكان الذي عش العنقاء لا أثر له، فأين يمكن صيدها. إلا بلطف الرحمن الهادي، الذي يقود التائهين في وادي المحبة وعاشقي جماله السرمدي إلى وادي التوحيد والفناء.

بحق رواد وادي المحبة وحاملي لواء الحمد والمعرفة الذين هم محمد المصطفى وعلي المرتضى والحد عشر من أبناء فاطمة البتول الزهراء (عليهم السلام من الملك المتعال)، وفق اللهم جميع المحبين وإيانا لكل ما يرضيك والحقنا بالصالحين.

بحمد الله ومنه، اختتمت هذه الرسالة الشريفة التي سميت برسالة لب اللباب في سير وسلوك أولي الألباب بقلم الفقير الحقير في ليلة الثامن من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٩هـ.ق.

وله الحمد في الأولى والآخرة وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

وأنا الحقير الفقير السيد محمد حسين الحسيني الطهراني في بلدة قم الطيبة.